

مدن القوافل في موريتانيا، دورها الحضاري من خلال الخطط الدينية وركب الحاج

د. حماد الله ولد السالم

سنقصر بحثنا - لأسباب منهجية وعملية - على المدن الأربعة المصنفة ضمن التراث العالمي وهي مدينة ولاتة [ولاتا] ومدينة تيشيت ومدينة ودان ومدينة شنقيط في دراسة لدورها الحضاري من خلال خططها الدينية والمجتمعية وركابها الحجية التي كانت قناة التواصل الثقافي والعلمي مع الأمصار العربية الكبرى عبر القرون .

ارتبطت النهضة الفكرية والحضارية في البلاد الموريتانية بتطور الحواضر الصحراوية التي كان ظهورها وازدهارها وثيق الصلة بحركة القوافل التجارية المنرددة بين السودان والمغرب عبر مسالك تجارية معقدة تطورت عبر القرون بالتساوق مع تطور المبادلات الدولية والتحويلات السياسية والبشرية في المنطقة .

1. المسالك القافلية وتطور المدن

لم يكن تطور المسالك التجارية فجائياً ولا ارتجالياً، بل كان على العكس من ذلك حركة بنيوية بطيئة ولكنها حاسمة، شأنها شأن كل تحول يتم على صعيد البنى الاقتصادية - الاجتماعية حيث يتم في مدة زمنية طويلة حسب تعبير مؤرخي مدرسة الحوليات الفرنسية (Ecoles des Annales)*.

* Braudel (F), Ecrits sur l'histoire. A. Collin, Paris, 1979.

ويعود تطوّر المدن التجارية في الصحراء، خلال العهدين الوسيط "والمرابطي" إلى الازدهار الذي عرفته مسالك المحور الغربي خلال النهضة المرابطية، حيث أخذت القوافل تتباعد عن الإقليمين الشرقي والأوسط في الغرب الإسلامي وتتجه نحو الغرب. وصادفت هذه العملية ظهور حركة قوية ومتوتّبة بأقصى الجنوب الغربي للمنطقة "فاستفادت القوافل واستفادت الحركة المرابطية على السواء" على حدّ تعبير المؤرخ الشهير محمد القبلي¹ في ظاهرة استمرت إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

كما يرجع ذلك إلى حاجة الأوروبيين الماسّة للذهب في هذه الفترة، مما مكّن المنطقة من أن تحقق أرباحاً هامة من تسويق هذه المادة من الجنوب إلى الشمال في العصر المرابطي لدرجة أنّ الأرباح تجاوزت نسبة ألف بالمائة² وقد أدّت هذه التطوّرات إلى ازدهار المحور الغربي ولاسيما جزؤه المسمّى "طريق اللمتوني"، الرابط بين محور وادي درعة - سجلماسة شمالاً والسودان الغربي جنوباً. وهو يخترق في جزئه "الموريتاني" المجابنات الكبرى إلى أحواز تيشيت الحالية، أو يمرّ بكدية أجل (أيزل في المصادر القديمة) ليصل أحواز ولآة فالسودان³.

ثم لم يلبث المحور الغربي أن اتجه نحو الانحطاط مع سقوط المرابطين واحتلال الموحدّين للمحطات الشمالية لتجارة الصحراء.

ينضاف إلى ذلك عامل أشدّ حسماً، هو تزايد "فرص الإخلال بأمن القوافل" بفعل سيطرة طلائع الهلاليين على تخوم البلاد حيث "أن تقدّم البدو البطيء نحو الغرب كان بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر، والحزام الصحراوي أصبح كلّه عملياً في قبضة القبائل العربية المتنافسة في منتصف القرن."⁴

واشتداد هذه الظاهرة في أواخر القرن الثامن للهجرة (قرن 14م) هو ما لفت انتباه ابن خلدون حيث لاحظ، في أخريات أيامه، أن الطريق الغربية المارّة "من ناحية السوس إلى ولاتن

1 - القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987 (ط1).

2 - م. ن.

3 - راجع البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ترجمة دوسلان، الجزائر، 1858 : "ذكر الطريق من درعة إلى غانة".

4 - القبلي، ص: 17

(ولآتة) قد أهملت لمّا صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت (إقليم توات)..⁵

وقد أدت هذه الوضعية بأرباب التجارة إلى العدول عن المسالك الغربية، والاتجاه شرقاً نحو طرق المحور الشرقي الرابط بين عقفة النيجر جنوباً والمتوسط عبر واحات توات التي كانت تقوم بدور محوري في مركزة البضائع خلال هذا العهد (14-15م) بين الشمال والجنوب.

ويرى محمد الشنافي أن النهضة الحفصية في تونس، واهتمامها بالسودان قد زادا من حظوة هذا المحور.⁶

وستظل كفة هذا المحور راجحة حتى القرن العاشر للهجرة (ق 16 م)، وهو ما تؤكده شهادات ابن بطوطة (ق 14 م) وشهادات السعدي (ق 16-17) والحسن الوزان (ليون الإفريقي) وغيرهم. وقد أدت هذه التطورات إلى انهيار المدن التجارية التي ازدهرت في عهد المرابطين، ونهضة المدن الواقعة على حواف هذا المحور، وذلك قبل أن يبدأ البرتغاليون في تركيز أقدامهم على الشواطئ الإفريقية في بداية تحول المسالك التجارية الدولية.

وأدى خروج أوروبا من مشكل الذهب الشهير⁷ وسيطرتها على تقنيات الملاحة في أعالي البحار بعد عدة إخفاقات، إلى حدوث طفرة في الكشوف الجغرافية، مما كان له أثر على المسالك التجارية التي بدأت تخرج نهائياً من المتوسط الذي كاد يستحيل في يوم من الأيام، "بحيرة عربية"، إلى المحيط الأطلسي. وقد أسس البرتغاليون مركز أركين على الشواطئ الموريتانية، وفق سياسة لتأسيس محطات سفن الكارافيل ووكالات تجار لشبونة على طول السواحل الإفريقية.⁸

وبالرغم من أن القوافل قد بدأت تتخذ تلك الوجهة، إلا أن الحضور البرتغالي لم يستطع أن يؤثر بشكل هيكلي على "جغرافية الذهب في الساحل"، كما لم تستطع القوى الأوروبية التي ستأتي بعده أن تقضي على تجارة الصحراء. غير أن هذا الحضور الأوروبي وتوابعه،

5 - العبر (طدار الكتاب، بيروت، 1967)، ج 6 ص: 118

6 - Chennafi(M), Sur les traces op.cit, p p; 100-101

7 - حول هذا المشكل، راجع: مارك ابلوك، مشكل الذهب في العصر الوسيط، ترجمة م. إسكندر، منشورات الجمعية التاريخية المصرية القاهرة، 1968.

8 - راجع حول الكشف البرتغالي و توابعه: تاريخ إفريقيا العام، ص: 305 و326 و635 و670.

بدأ يسهم، إلى جانب التطورات التي حدثت في الساحل وهي سقوط تنبكتو على يد رماة السلطة السعدية سنة 1591 ثم وفاة المنصور السعدي سنة 1603 واندلاع الفوضى في المغرب، ثم الصراع السياسي بين قوى حوض النيجر، في ازدياد حصة البوادي القريبة من الأطلسي وكذلك في تعمير المدن الواقعة في شرق البلاد وشمالها.

سنركز هنا على نشأة المدن وتطورها العام، وروافدها الثقافية والحضارية، مع التزام الترتيب حسب أقدمية المدينة .

1.1 ولآة :

الحاضرة العتيقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرق الموريتاني الحالي (ضمن ولاية الحوض الشرقي). وقد تأسست في القرن 2هـ/8م، وتعتبر أقدم المدن في غرب الصحراء وهي من كبريات حواضر الإسلام والثقافة العربية في غرب الصحراء والسودان، دار علم ذائعة الصيت ومركز تجارة قديم، واسمها الأول أبير، وقد أطلقه عليها السونكة (أوالبامبرا)، وهو في لغتهم السودانية: المدخل، حيث كانوا يقولون: "بيريافه"، أي مدخل المدنية. وإذا أضافوا المصر إلى سكانه قالو: "بيركو": أي سكان ولآته.⁹

وأقدم إشارة إلى هذه التسمية ذكرها السعدي (في تاريخ السودان) في سياق حديثه عن ازدهار تنبكتو على حساب بير (ولآة) بعد أن كانت هذه هي المزدهرة تجارياً وعمرانياً، فقال: "فكانت عمارة تنبكتو خراب بير".

أمّا الاسم الحالي ولآة، فهو في نظرنا النطق "العربي" "الحسانی"، للاسم الصنهاجي: إيولاتن. وكان أطلقه على المدينة قبيل من مسوفة، لعله أول من قطنها من البيض.¹⁰

التاريخ القديم لولآة، موغل في القدم، ولذلك فإنّ الحقائق بشأنه قليلة. فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بني إسرائيل¹¹، قبل الإسلام، أي خلال القرنين 6 و7 للميلاد.¹²

9 - الراي للشيخ الطلاء : أبا ولد انه الولآتي، راجع مقدمة محمد عبد الله ولد زيني التاريخ جدو (مذكرة شهادة أستاذية 1993).

10 - راجع تعليق محمد حجّي على وصف إفريقيا، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت.

11 - راجع جاك مونني المدن القديمة في موريتانيا : في تكانت والحوض

Meunié (D. Jacque) Cités Anciennes de Mauritanie
(Librairie. C. KLINCKSIECK; Paris 1961) p: 72.

idem - 12

وخلال القرن الخامس (ق11م)، سيطر المرابطون على غانة وأضحت مدينة ولّاتة القرية الصغرى آنذاك خاضعة لنفوذهم .

وفى القرن السابع، (ق13م) سقطت مملكة غانا في أيدي الصوصو 1203م، مما اضطر المسلمين بقيادة الشيخ إسماعيل إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي في حدود عام 1224م بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدّمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان. وبذلك ورثت ولّاتة الدور التاريخي لغانا حسبما تذكر الروايات الشائعة.¹³ وبالرغم من أن تأسيس تنبكتو خلال هذا العهد جذب القوافل والمواد التجارية، إلا أن ذلك كان متدرّجاً ولم يكتمل إلا عبر عدّة قرون.

وخلال هذه الفترة ظلّ الدور التجاري الولاتي في تصاعد، مما جذب إليها التجار من كل حذب وصوب كما هو شأن شركة "الأخوة المقري" في القرن الرابع عشر الميلادي التي أسّسها خمسة رجال من عائلة المقري الشهيرة وهذا في المدن الرئيسية، ولّاتة وسجلماسة وتلمسان. وهناك عدة وكالات تجارية يرأس كل منهم إحداها مع مراقبة دقيقة للاستعمار وتنسيق محكم لسير القوافل من خلال تأمينها وحفر الآبار في طريقها في مشاركة سياسية مع ملوك مالي في هذه الفترة.¹⁴

وقد كانت هذه الشركة المتطورة، بمقاييس ذلك العصر، محل حديث مسهب من ابن الخطيب والمقري ويعتبر حديثهما عن هذه الشركة وعلاقتها بولاتة من أهم ما كتب عن هذه الحاضرة في ذلك العهد وأكثره دقّة ووضوحاً. وخلال هذا العهد طغى العنصر المسوفي والتوارقي على المدينة مما جعلها تسمى "إيولاتن" باللسان التوارقي مدة طويلة نسبياً.

وفي الفترة نفسها وخلال سنة 1352م مرّ بها ابن بطوطة في قافلة مغربية تقصد تنبكتو، ويؤكد في وصفه للمدينة على تبعيتها السياسية لمملكة مالي وأهميتها التجارية بالنسبة لمحور تنبكتو - النيجر.¹⁵

وفى القرن الخامس عشر الميلادي أي سنة 1443م استولى التوارق بقيادة رئيسهم "أكل" على ولاتة بعد سيطرتهم على تنبكتو و"ودان".¹⁶ وفي سنة 1468 كانت بير ولاتة ملجأ لعلماء صنهاجة الذين طاردهم "سني علي" ملك السونغاي القاسي.¹⁷

idem - 13

idem - 14

15 - راجع الرحلة : تحفة النظار ...م.س.: ذكر الطريق إلى السودان، طبعة دار صادر، بيروت . د.ت.

16 - السعدي: تاريخ السودان، ترجمة وتحقيق هوداس، منشورات اليونسكو عن الطبعة القديمة، 1981.

17 - نفس المصدر.

مع مطلع القرن العاشر (ق16م)، كانت ولاية مدينة حيةً تنصّر إلى تنبكتو ملح إجل الآتي عبر تيشيت.

وتذكر المصادر البرتغالية خلال هذه الفترة، أن كل سكان المدينة مسلمون ويخضعون لملكين أحدهما أبيض والآخر أسود، مع بقاء المدينة في النطاق "السوداني".¹⁸ والأرجح أن ذلك يعود إلى استقلال كل عنصر من السكان بقائده والقيم على شؤونه.

أمّا في مطلع القرن العاشر للهجرة (16م)، فإن شهادة الحسن الوزان (1506-1507) تؤكد تدهور وضع المدينة الاقتصادي وتراجع أهميتها التجارية لصالح تنبكتو، وكذا تعايشت جماعات مختلفة بعضها ذوو أصول سودانية يتحدث لغة السونغاي، والبعض الآخر من أصول العنصر المسوفي-التوارقي، ويبدو أن الوضعية الثقافية والدينية قد تراجعت عن ما كانت عليه في عهد ابن بطوطة.

ولذلك وصفها الحسن الوزان، حوالي عام 1505 بأنه "لا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في بؤس شديد..."¹⁹

ويبدو أن هذا العهد من تاريخ ولاية، هو الذي شهد قدوم سيد أحمد البكاي الكنتي³⁹ (ت920 هـ)، صحبة جمع من تلاميذه في سياق مناقبي عريض ذكرته المصادر الكنتية

18 - راجع: ابن حامد، الحياة السياسية، نص مرقون لدى المعهد الموريتاني للبحث، بار الثقافة، نواكشوط، ص. 60-61-62

19 - وصف إفريقيا، ج 2، ص: 161-162

39 - سيد أحمد بن سيد محمد الكنتي : [ت920هـ] والبكاي لقب غلب عليه قيل لأنه ((تواتر عنه وصح أنه لبث مائة عام لم ترقأ دمعه وذلك من أجل صلاة واحدة فاتته في الجماعة...)) الطرائف: 2: 69. ترجم له البرتلي (فتح الشكور: 30-31) وقال: "كان من عباد الله الصالحين، والأولياء المعروفين المشهورين. يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، يزوره الشرفاء والأولياء والصالحون وغيرهم وأكثر الناس زيارة له الغريباء وأهل التل والمسافرون الذين يأتون بالتجارة من جهة الشمال، لما رأوا من بركاته كثيرا (....) هو جد كنته كلها: كنته الحجر وكنته الأزواد. وأخرج الله تعالى من نسله كثيرا من الأولياء والصالحين..." وتضمن المصادر بشاف عن حياة البكاي في ولاته وفي موطنه الأصلي، لكن المرجح أنه عاش في تنيك بين أخواله وأصحابه الجكنيين قبل أن يبدأ رحلته التي لا تعرف بدايتها ضبطا، لكن من الثابت أنها لم تقع إلا بعد (سنة 911هـ) حيث ذكر الشيخ سيد محمد الكنتي الخليفة في الطرائف: 2: 69 رواية عن سيد أحمد بن الحاج عبد الله بن سيد أحمد بن الرقاد أنه "... رأى وثيقة بخط يده كتبها في نخل اشتراه في شنقيط في العام المذكور..." وهذه الرواية الثمينة استطردها الشيخ سيدي محمد الكنتي للتأكيد على أن البكاي كان حيا في تلك السنة مما يعني أنه لم يكن يعرف تاريخ وفاته إبان تدوين هذه الرواية، ثم استحضره بعد ذلك في الغلاوية والمعروف أن تأليفها كان بعد كتابة الطرائف. واجتهادنا أن الشيخ سيد أحمد البكاي كان من أقدم مؤسسي الحركة العلمية في مدينة ولاته، حيث عاصره أجداد المحاجيب وأفادوا منه حسبا جاء في رواية الشيخ سيد محمد الخليفة عن والده الشيخ سيد المختار في قوله: "حدثني الفقيه محمد أند بن عبد الله الولائي قال حدثه أبوه الفقيه محمد بن الفقيه أحمد عن أبيه الفقيه أحمد عن جده سيد عبد الرحمن المحجوبي، وكان تقطب، أنه أخذ العلم والولاية عن القطب الكامل سيد أحمد البكاي..." الطرائف: 2: 69-70 وزاد في ترجمة ابن العربي وكتابه المسمى "أنوار الفجر وأمواج البحر" في تفسير القرآن لقوله: "وأخبرني الشيخ [سيد المختار] -رضوان الله عليه- أنه وقف من هذا التفسير الكبير على زهاء مائة سفر، في خزنة جده سيدي أحمد البكاي بولته" راجع: Whitcomb, p. 410, p. 2, (116), الطرائف: 2: 69-70 و86. البرتلي، فتح الشكور: 30-31 راجع تحقيقنا للرسالة الغلاوية، قيد الصدور.

المختلفة. استقر بعده البكاي في ولّآة، معلماً ومربياً، ولكنه لم يلبث إلا سنوات قليلة حيث توفي سنة 920م بعد أن أرسى، كما تقول الرواية، أول تقليد علمي عرفته المدينة، كما فرض الحجاب على نساؤها، في إشارة ربما كانت تعني مسوغة وعناصر الملثمين عموماً.²⁰

ولّآة في ظل المجموعات الحسانية

عرفت بلاد الحوض، بما فيها مدينة ولّآة، حضور بني حسان على نحو متدرّج، في موجات متوالية. ولذلك كان الصراع على أشده بين القوى القديمة والوافدة وبين هذه الأخيرة نفسها.

ومن أقدم هذه الموجات الحسانية مجموعة أولاد يونس التي استقرت في ولّآة منذ عهد مبكر ودخلت في حروب دامية مع المجموعات المقيمة وتلك الوافدة، سعياً إلى التحكم في الأتوات المفروضة على السكان وإلى تكريس سيطرتهم على المدينة. لقد وفد أولاد يونس إلى شمال الحوض منذ القرن (9هـ 15م) واستقروا في الحيز الغربي من المنطقة الواقعة غرب ولّآة. ودخلوا في صراعات مع سكانها من البيض والسود. ثم قاموا بتخريب مدينة تازنخت الشهيرة لأسباب نجهلها.

وكان من نتيجة المعركة أن كرّس أولاد يونس سلطانهم على ولّآة وعلى شرقي بلاد الحوض بينما سيطر أولاد بوفائدة على غربها.

وبعد أن ضعف كيان أولاد يونس خلفهم أولاد زيد لاسيما بعد تغلبهم على بني عمومهم أولاد علوش في معركة دامية قرب بئر تكلط سنة 1073هـ. ثم لم تلبث القوى الحسانية الأخرى أن توالى استقرارها لتدخل في معارك دامية لم تنته إلا مع سيطرة أولاد أمبارك على المنطقة لاسيما بعد معركة كساري سنة 1124هـ على أولاد بو فائدة وأحلافهم من ياداس والسودان.²¹ وقد أصبحت ولّآة منذ تلك الفترة ضمن نفوذ أولاد أمبارك حتى نهايتهم أواخر 1841 عهد صعود آل مشظوف الذين ورثوا السلطة على المدينة وعلى أحوازها من عموم شرقي بلاد الحوض حتى زمن مجيء الفرنسيين.

20 - راجع: الرسالة الغلاوية (الفصل الخاص بتاريخ كنتة وايد ولحاج) والطرائف والتلائد، ج.2، ص.69-72، تحقيق عابدين بن حم لمين (المعهد الموريتاني، 1994).

21 - راجع: الحسوة، في مواضيع مختلفة. وكذا: الحوليات.

أصول السكان وتوزيع الخطط الدينية

يعتبر السود - إلى جانب مسوفة البيض - أقدم المجموعات التي قطنت مدينة ولّآة، ويبدو أنهم كانوا من السوننكي، ثم اختفوا في ظروف غامضة نرجّح أنها ترجع إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري (ق 17م)، بدليل ما ذكره الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي²² عن انتقال السودان عن ولّآة بعد مضي مائة من السنين، على وفاة سيد أحمد البكاي (ت 920هـ)، وكان سمّى المجموعة السودانية نفسها باسم "[C1]أسنكيتن". فهل كان يعني المجموعة السوننكية، أم يقصد السونغاي لاسيما وأن لغتهم كانت تستخدم في المدينة كما مرّ.

وبغض النظر عن هذا النقاش، فإن المهم بشأن سكان ولّآة، هي المجموعات العربية - الصنهاجية المختلفة الأصول والمرجع، التي أضحت منذ القرن العاشر الهجري (ق 17م) على الأقل تنتمي إلى مجتمع البيضان الناطق بالحسانية والمنتشر على الرقعة الترابية المنسوبة إليه والتي صدرنا بذكرها هذا العمل. وأهم هذه المجموعات البيضانية هي علي التوالي حسب أهميتها العديدة ووزنها الثقافي والديني: المحاجيب والشرفاء وإدلبه وشرفاء الاقلال، ثم المجموعات ذات الأصول الحسانية التي لم تكن مستقرة في المدينة بفعل الصراعات المختلفة لكن آخرها وجوداً واستقراراً هي مجموعة أولاد داوود.

* المحاجيب:

يعتقد أن المحاجيب هم أول من سكن ولّآة من البيض²³ في تاريخ لا نعرفه ضيقاً. وقد جاء في حوليات توات [جنوبي غرب الجزائر]، أول ذكر للمحاجيب في أحواز هذه الواحة في حدود سنة 767هـ.²⁴ أما الرواية الشائعة عن أصول المحاجيب فلخصها ابن حامد بما نصه: "يطلق هذا الاسم على ثلاث قبائل تظاهروا وتعاقدوا في ولّآة، وهم أولا أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحيى بن ينومر [أو تنمرة]، ثانياً: آل انداعلي ونسبهم إلى محمد بن الحنفية وهم أحوال المحاجيب وقضاتهم قديما وأولهم قدوماً على ولّآة وتازخت ثم صاروا إلى تنبكتو. ثالثاً: الإمامات ونسبتهم إلى سعيد بن العاص الصحابي، وكانوا يتولون إمامة الصلاة حتى انقرضوا. عاش هؤلاء البطون الثلاثة قروناً في ولّآة وتازخت وقامت لهم هناك دولة علم ودين ودنيا. وكان منهم جميعاً أئمة وعلماء مدرّسون وقضاة ومفتون ورؤساء مشهورون. وكان

22 - راجع: الطرائف، م س، ص 70، والغلاوية، م س.

23 - راجع: مقدمة تحقيق: تاريخ جدوين الطالب الصغير البرتلي.

24 - راجع: فرج محمود (فرج)، أضواء على إقليم اتوات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الخارطة.

للمحاجيب عادات شريفة يحترمونها، منها أن نساءهم لا يتزوجن من الأجانب ولا يخرجن من البيوت. من هناك سمي أولاد الفقيه عثمان بالمحاجيب، ثم أطلق الاسم على الجميع...²⁵

أما المحاجيب فيذكرون في روايتهم الخاصة أنهم ينحدرون من جدهم الأعلى يحيى الكامل المنتمي إلى سلالة الشرفاء البغداديين، وأنه كان معاصراً للشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة 651هـ.²⁶ كما تذكر هذه الرواية أن يحيى الكامل مربّاتوات وفيها ترك ابنه أحمد.²⁷

فهل يعني ذلك وجوداً قديماً للمحاجيب في تلك الواحة الصحراوية، لاسيما وقد مرّ بنا وجود ذكر لهم هناك في القرن الثامن. لا نملك ما يسمح بالجواب عن مثل هذا السؤال، لكن الرواية نفسها تعزولها هذا الجدّ نشأة الحركة الفكرية والدينية في مدينة ولاته بينما تردّ الرواية الكنتية هذا التأسيس إلى سيد أحمد البكاي.²⁸

وعن ذلك يقول حفيده الشيخ سيد المختار الكنتي في كتابه الحافل الإرشاد [ويسمى أيضاً المنة في اعتقاد أهل السنة] ما نصّه²⁹ "حدثني الفقيه محمد بن عبد الله الولائي قال حدثه أبوه الفقيه محمد ابن الفقيه أحمد عن الفقيه أحمد عن جدّه سيد عبد الرحمن المحجوبي أنه تقطّب وأخذ العلم عن القطب الكامل سيد أحمد البكاي...." واستطرد قائلاً "عزم البكاي على متابعة الرحلة وكيف تعلّق به المحاجيب في الإقامة وقبل بعد تردّد وشرط عليهم شروطاً منها أنه أمرهم بالحجاب فعقلوا، وأن لا يدخل أحد بيت أحد إلا أن يكون محرماً فاستقاموا على السنة وأخذوا عليه العلوم....". ويغض النظر عن هذا النقاش العريض فإنّ جلّ التقاليد المكتوبة والمروية تجمع على أقدميتهم في المدينة، وسيطرتهم على مقاليد الأمور فيها من خطط دينية [إمامة، قضاء..] وتحكم في المدينة، برغم أنهم كانوا أحياناً - ربما لحنكتهم السياسية - يتنازلون عن "الرئاسة" جزئياً، وبشكل رمزي في الغالب لصالح إحدى طائفتي شرفاء أتوات وهم أهل مولاي صالح وأهل مولاي أخليفة وذلك بشكل دوري، مما جعلهم يتحكّمون في اللعبة السياسية المدنية ويمسكون بخيط الرئاسة الفعلية فيها والمتمثلة في الإمامة التي ظلوا يتوارثونها، ولا يسمحون لأي كان بالتصدّر فيها، ولو ظرفياً، لقيمتها الدينية والسياسية، مما سيكون بذرة خلاف في المستقبل بينهم وبين بعض أعيان علماء المدينة.

25 - الموسوعة، جزء المحاجيب، ص 1 وما يليها [محفظة في دار الثقافة، نواكشوط]

26 - راجع: حمادي بن المرتجي، الشعر في ولاته، رسالة تخرج من مدرسة المعلمين العليا، نواكشوط، 83-1984، م، ص 8

27 - حمادي، الشعر، م، ص 8.

28 - راجع: الكنتي: الطرائف، النسخة المخطوطة، محفوظة لدى زاوية المختار الكنتي، نواكشوط.

29 - الإرشاد: ص ص 189 و 192 نسخة زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بانواكشوط.

وقد اشتهر المحاجيب بجودة الرأي وبالسلوك الديني والأخلاقي الحميد وبالاستقلالية الشديدة.³⁰

أما المجموعة التالية، للمحاجيب، من حيث الأهمية، فهي الشرفاء.

* الشرفاء

ويضمّ مشمول هذا الاصطلاح كل المجموعات الشرفية من بني سيد أحمد بن الحاج بن سيد حمو، وجمهورهم في ولّاة والنعمة. وكانوا قدموا إلى هذه من تلك في سياق يأتي ذكره. وقد ذكر سيد حم هذا في الوثيقة الملكية المغربية المعنونة "تقييد ما اشتمل عليه إقليم

30 - راجع : ابن المرتجى (حمادة) : الشعر الولاتي في القرنين 13-14م ، ص: 20-21 وجاء في قصيدة للمسمى محمد بن مسلم الديسفي "الديسفي" الجكاني (ق9ه9م) مديح عريض للمحاجيب وتزكية لنسبهم العربي القرشي (?)، وهي أقدم قصيدة في موريتانيا حيث يبدو تأسيس القصيد مرتبطا بالشرق الموريتاني منذ القرن 10هـ، ومنها :

إذا كنت جوالا بأرضك تبتغي	منازل بعض الصالحين ذوي الذكر
عليك بعثمان الفقيه المجدد	وأبائه الغر الأكارم من فهر
أولئك من خير الأسالف عادة	قديما بطيب الأصل في أكمل العصر
محمد الغيث الذي كان جوده	يقوم مقام الغيث في زمن العسر
محمد الغيث ابن قطب زمانه	محمد الفتح المقدم في الأمر
ووالده الفتح الكريم محمد	له كان فتح المشكلات مدى الدهر
وذاك ابن يحيى الكامل الخير كله	وذلك في نسل الخلائق والحبر
ومن نسل من كانت قریش تهابه	وتصفوله في السر منها وفي الجهر
شعيب بن إدريس بن موسى بن جعفر	حري بأن ينمي أخير بني الفخر
حسين بن بنت المصطفى وابن عمه	لنعم الفتيل الشامخ العز والقدّر

(.....)

ثم شرع في ذكر أبناء القاضي اندا علي رافعا نسبهم إلى محمد بن الحنفية :

ولا تنس قاضي القصر جد قضاته	علي بن عبد الله نعم أخو الفخر
ومن كان في سلك ابن خولة منسيا	محمد المشهور بالعلم واليسر
سليل ابن عم المصطفى ووصيه	علي أبي السبطين ذي العلم والسر

ثم يعرج على الإمامات رافعا نسبهم إلى سعيد بن العاص فيقول :

ووال لهم من أمهم فضيلهم	لبطاتا لما قد أم في ظاهر الأمر
أمام وفي كل الأئمة خالصي	وقد خلصى منه الأئمة بالكثير
وقد حكم المختار أعدل حاكم	لجدهم الأعلى على العرب بالفخر
سعيد ابن نجل العاصي خير صحابه	عليه سلام الله في آخر الدهر

ثم يذكر تآلف الفروع مشكلة المحاجيب جميعا:

ومن كلهم جاءت رجال أعزة	كما أنهم في معدن العز والنصر
وصاروا قبيلة واحد وتصاهروا	وكلهم في معدن المجد من نجر
وكانوا بعظم لا يرى لهم كفوًا	من الناس في الإحسان والطبع والفخر
وفيهم رقة للمنابر منهمو	ومنهم حكام للحكومة كالسمر
ومنهم قضاة يعدلون ومنهم	أئمة هذا العلم في النظم والنثر
وهم قد تكلوا بالمحاجيب جملة	من العالم المحبوب والعلم الصدر

(...)

ويمكن اعتبار هذه القصيدة أقدم نص شعري موريتاني حتى الآن، كما أنها من أجوده وأسلسه الفاظاً، ولا أهمية للتشكيك الذي قدمه ابن المرتجى لما قد يكون وراءه من اعتبارات سياسية.

راجع : ابن المرتجى، س، ص. ص. 20-21.

أتوات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى". جاء بعد ختم السلطان الحسن [الأول] ما نصه: "ليعلم من نظر كتابنا هذا أعلى الله مناره وجعل في تلك... والتوفيق مداره أننا ولينا مالكة ابن عمنا مولاي علي بن إسماعيل العلوي المحمدي على إخواننا الشرفاء العلويين آل سيد حم بن الحاج الذين بإقليم أتوات". ثم جاء في صفحة أخرى... وفيها عدد كبير من الشرفاء العلويين المنحدرين من أصلا ب ملوك المغرب ...³¹.

وأهم شرفاء ولآة من أبناء سيد حم : آل مولاي أخليفة وآل مولاي صالح، وسيسلمهم المحاجيب الرئاسة بصورة رمزية تقديراً لمكانتهم للنسبة الشريفة.

* إديلبه

هم فرع من قبيلة تجكانت المعروفة. ولا تصرح الرواية الولائية بتاريخ قدوم إديلبه ولا من أين جاؤوا. وإن كان البعض رجح قدومهم من جهة الساقية الحمراء حيث بنو عموماتهم من الجواكين المعروفين بأيت يوسي من قبيلة تكنه، حسب وايتكنب (twihitcomb). ويذكر أيضا أن أصلهم من تنيكي، تفرقوا بعد خرابها ولجأوا إلى ولآة.³²

الأغالل (أو الأقلال)⁵⁴

ومن أبرز القاطنين منهم بولآة أولاد سيد أبي بكر، وهم شرفاء وينتسبون إلى الأغالل من جهة أمهم فاطمة بنت محمد غلي. وسيبرز من بينهم أعلام من أمثال العالم النوازلي محمد بن أبي بكر بن الهاشم الغلاوي (1098هـ). إضافة إلى مجموعة أخرى من بطون أغلالية

31 - راجع: ابن حامد : جزء الشرفاء، (مرقون).

32 - راجع new evidences, op. cit.

54- ينسبون إلى محمد غلي وهو زاهد مشهور من مؤسسي مدينة شنقيط ويوجد أول ذكر مكتوب لقبيلة الأغالل، على حد العلم، في تاريخ السودان، للسعدي: 62، في معرض حديثه عن قيام امرأة أغلالية فاضلة ببناء مسجد تنبكتو الكبير. وفي المحاضرات لليوسي (المقدمة)، أنه ولد في حارة الأقلال، فلعلهم كانوا هناك.

وحول أولية الأغالل في شنقيط يقول ابن حامد، الموسوعة: 13: 1-6، إنه كانت "إلى إيدو غلي الرئاسة وإلى الأغالل الخط الدينية كالإمامة والقضاء والفتوى، فقامت لهم جميعا دولة دين وعلم وثروة...". وفي عجز القرن الحادي عشر (17م) خرج جمهور من الأغالل إلى "العصاية والحوض حيث كثر مالهم واتباعهم من مهاجري بني حسان" فهم "الأغالل الشرقيون"، وهم الذين تنامت قوتهم: فكانت، أولاد الناصر، مشغوف، والكيانات الإقليمية: الرماة وغيرهم. وصف الرحالة هينريش يارث (ق19م) رئاسات الأغالل الشرقيين وأشار إلى توزع الاتحادية على تشكيلات خماسية التنظيم.

وصف الرحالة هينريش يارث (ق19م) رئاسات الأغالل الشرقيين، وأشار إلى توزع الاتحادية الاغلالية على شكل تنظيم خماسي. راجع: ابن حامد، الجغرافيا: 59-60. ابن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل (مخطوط). راجع: هاينريش يارث:

Heinrich Barth, Travels and Discoveries in North and Central Africa, a Journal of an expedition undertaken under the auspices of H.B.M. government in the Years 1849-1855, 5 vols. (London: Longman, 1857-1858)

مختلفة. ويرجّح أن يكون هؤلاء جميعاً قدموا من تكانت ولعلهم جاؤوا هذه الأخيرة قادمين من شنقيط وهي منطلق القبيلة الأصلي³³.

1.2 تيشيت

تقع تيشيت إلى الشرق من مدينة تجكجة ضمن ولاية تكانت وهي حالياً من الشرق الموريتاني. تأسست تيشيت سنة 536هـ/1142م، على يد الشريف عبد المؤمن. وكان تلميذاً للقاضي عياض (ح544هـ/1149م)، هو وزميله الحاج عثمان، ثم رحلا إلى الصحراء في ظروف غامضة. وليس هناك من تفسير لاسم المدينة يركن إليه، إلا أن بعض الباحثين يرجّحون أن يكون الاسم الأصلي للمدينة شيتو، وهي صيغة سودانية سوننكية، ثم أضاف إليها السكان الصنهاجيون إضافة أخرى فأصبح الاسم تيشيت.³⁴

ومهما يكن من أمر فإن أولية تأسيس المدينة تعود إلى ما ذكر، وأقدم من لخص هذه الرواية هو محمد ابن أحمد الصغرى في كتابه إنارة المبهم في أخبار شرفاء تيشيت وطلبها بني محمد مسلم، وفيه جاء ما نصّه³⁵: "إعلم إنّه مما اشتهر أنه أول من بدأ في بناء تيشيت الشريف عبد المؤمن بن صالح. ويقال إنّه مر بموضعها قبل أن يبني فيه، فقدم على البناء فيه وموضعها أكم مرتفع عن الأرض. ومما يقال في خبر قدوم عبد المؤمن للبناء فيه أنّه ارتحل عن شيخه القاضي أبي فضل عياض، حين كان يقرأ عليه، وارتحل معه صاحبه الحاج عثمان المشهور المدفون معه بمسجد تيشيت في جهة الشمال، فصرفا اهتمامهما إلى التوجه نحو بلاد التكرور، فلما حلاّ فيها تفرّقا، فارتحل الحاج عثمان إلى بلاد أدرار، ونزل بها على جدّ الوتيدات وبني يعقوب من إدولحاج، وصار عبد المؤمن إلى بلاد تيشيت، وساكنوها يومئذ أهل أخصاص على قدر فرسخ من جهة جنوب موضع القرية. فندب بعضهم إلى البناء، فلم يساعده لعجزهم عن ذلك قائلين: لم يبق من الدهر ما تبني فيه القرى. فارتحل عنهم إلى موضع القرية الذي هي به الآن، وكان قد صحب معه حين قدومه من له حرفة بالبناء وآلات البناء. فابتدأ ببناء المسجد، ثم أبتنى داره حذوه. ثم لما سمع الحاج عثمان بخبره ارتحل إليه فأقام معه. (...) ثم إنّ عبد المؤمن توفي وبقي نسله وبنوه بها إلى الآن، في دار سكانهم من القرى، لم يستوطنوا غيرها".

33 - راجع : p.71 Meunie, op. cit

34 - مقابلة مع محمد بن مولود بن داداه الشناقي بقرية عين السلامة (2000/11/15)

35 - راجع : المخطوط نسخة زميلنا د. محمد بن مولود الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب.

ولم تلبث تيشيت أن أصبحت منذ القرن العاشر (ق16م)، محطة متقدمة لمركز ملح "إجل" بين وادان وولاتة.³⁶ وبالإضافة لبني عبد المؤمن، توالى قدوم المجموعات الأخرى والمجموعات القاطنة بتيشيت أربع مجموعات هي:³⁷ ماسنة وهم مجموعة بيضانية ذات أصول صنهاجية - سودانية مختلطة. الشرفاء: أبناء عبد المؤمن، والطلبة: أبناء محمد مسلم [أهل هند انسلم]، ثم أولاد بله [من بني حسان].

وقد استقل كل عنصر من هذه العناصر بجهة خاصة من جهات المدينة : حسب النطق المحلي للجهات، في الجنوب: ماسنة، والشرفاء [أهل سيد شريف و شرفاء تيشيت] ويعرفون بـ "أهل الإيزاء الكبلي". أما في الشمال: فقطن أهل محمد مسلم [طلبة تيشيت] ويعرفون بأهل "الإيزاء الساحلي"، أما جهة "التل" فيقطنها أولاد بله.

وتعود الأغلبية السكانية في تيشيت إلى قبيلة ماسنة، ويعود مجيء ماسنة - حسب الروايات المحلية - إلى تيشيت انطلاقا من قرية ترني في جنوب الحوض.³⁸

أما الطلبة (أهل محمد مسلم) فهم ينتسبون إلى عقبة بن نافع الفهري الجد الذي تنتسب إليه قبيلة كنة وبعض إدو الحاج⁶⁰ (بطن إدياقب) وتجكانت (بطن إديقوب) والمحاجيب.³⁹

meunie. op.cit. p 58 – 36

idem.p 57 – 37

38-راجع : Echennafi (M), sur les traces op. cit.

60- إدو الحاج: من كبريات القبائل الزاوية ذات الشأن العلمي، الاقتصادي، والسياسي في البلاد الموريتانية. تفرعت هذه القبيلة من خمسة رجال كل منهم يعرف بالحاج، ويصدق شمول هذا الاستطلاع على الفروع الأساسية التالية: (إدو يعقوب، أولاد الحاج، إدو بيج، لوتيدات، الأقتبين، الصيام، الشرفاء: أهل سيد المتقي، أهل الطالب أجود، أهل أحمد شريف التلمساني، تامكونه وتفرله) مواطنهم في القديم: تيشيت، وفيها اصطدموا بسكانها الأصليين من ماسنة، و وادان وهم مؤسسوه وأول من عمره، فصار كصرا عامرا، وكان قبل أخصاصا تعممه (تيزكه).... كان إدو الحاج الركيبة (إدو الحاج الشرقيون المعروفون بأهل سيد محمود) هم المناهدون لكنته في تكانت. وينقسمون إلى عدة بطون:

- الصميم أي من يرجع إلى أحد الحجاج في انتسابه.
- تغده وهي فروع كثيرة يرجع أكثرها في انتسابه إلى إدو عيش.
- أسواكر، وهم من فروع تغده إلا أنهم انفصلوا عنها منذ قرن تقريبا.
- سارة، وهم خليط من الناس يشمل الكثير من الفروع التي لا تجتمع في أصل واحد.
- الرعيان، وهم قلة بالنسبة لسابقيهم وفيهم من يرجع إلى أصل عريق في أولاد أدليم، أنظر: ابن حامد، الموسوعة ((إدو الحاج))، 50، 4. وفي نفس المصدر ذكر ابن حامد أن إدو الحاج الركيبة قد التحقت بهم فرقة من قومهم الذين كانوا يعمرن وادان مثل الوتيدات ومن بقي من إدو بيج.

حول تاريخ وأنساب إدو الحاج وتفرعاتهم الأساسية في جهات البلاد راجع: ابن كتاب، المنهاج (مرقون)، عبد الله بن سيد محمود، النبذة (ملحق الغلاوية). ابن حامد، الجغرافيا: 48-50، الموسوعة، ج4: 1-6، الشيخ موسى كمر: زهور البساتين (مخطوط) 101-100 Chennafi, sur les traces d'Audagust ; الفصل الخاص بتاريخ إدو الحاج وكنته). الرسالة الغلاوية. الحاج (مرقون). الشيخ سيد محمد الخليفة الكتني، الرسالة الغلاوية (الفصل الخاص بتاريخ إدو الحاج وكنته). الرسالة الغلاوية.

39 - راجع: ساطع الإنارة، (مخطوط). وفيه الرواية الواردة في إنارة المبهج .

وتذكر رواية آل محمد مسلم أولية قدوم جدهم على المدينة فتقول: " إعلم أنه فيما بلغنا من خبر مجيء محمد مسلم لبلاد تيشيت إنه لما جاء نزل على بني عبد المومن بتيشيت، فطلبوا منه السكنى معهم، فأجابهم فيما طلبوا منه، ثم إنه طلب من بعضهم أن يزوجه ابنته فتزوج منها، فعاتبه الناس على ذلك وقالوا له: تزوج ابنتك من رجل لا تعرف نسبه؟ فقال لهم: إنما فعلت ذلك لأجل ما رأيت فيه من الدين، فأنت أم بني محمد مسلم الأولى شريفة، ثم بعد ذلك اختلطوا مع الشرفاء اختلاط اللحم والدم، حتى أنه قلما يوجد شريف إلا أمه أو جدته من بني محمد مسلم، وقلما يوجد أحد من بني محمد مسلم إلا أمه أو جدته من الشرفاء (...). [و] ظهر لي أن مجيء محمد مسلم لتيشيت كان في أوائل المائة التاسعة (...) أو آخر المائة الثامنة (...) ".⁴⁰

أما أولاد بله فهم من آخر المجموعات الحسانية التي توالى حكمها على المدينة ، ذكر ذلك صاحب إنارة المبهم بقوله: "... وقد تداولت فيها قبائل شتى وبنوا كلهم وآخر دولة بها دولة أبناء بل بن داود بن محمد بن عثمان بن مغفر بن ودي بن حسان، وقد انقرضت في سنة سبع وستين ومائتين وألف (1267 هـ) انقرضت في حربهم بينهم..."⁴¹ ويعود قدوم أولاد بل إلى المدينة إلى نهاية القرن الثاني عشر (ق18م) حيث دخلوا المدينة سنة (1781 - 1790). وأثناء تمركزهم هناك سيواجهون الحملة الشهيرة التي نظمها ضدهم الشيخ سيد المختار الكنتي (1226 هـ) بتحالف مع أولاد الناصر ومشطوف، في معركة ضارية قرب "كنكي لمدن" (9) ودارت فيها الدائرة على أولاد بله وحلفائهم من طلبة تيشيت الذين وقفوا إزاءهم معنوياً.⁴²

وفي بحر القرن التاسع عشر (1845 - 1850) وقعت الحرب بين ماسنة وأولاد بله داخل المدينة نفسها لتنتهي بخروج أولاد بله من تيشيت ليؤسسوا قريتهم الخاصة أغريجيت حوالي 1850م.

وتذكر رواية إدو الحاج وجوداً قديماً لبعض الحاجيين في تيشيت من ذرية الحاج عثمان زميل مؤسس المدينة، وتشير بهذا الخصوص إلى ذريته من أبناء المسمى بوزو بن بو أطبول.⁴³

40 - إنارة المبهم، م.س

41 - نفس المصدر.

42 - راجع: الطرائف ، الجزء الرابع (من المخطوط)

43 - الرسالة الغلاوية م.س.

ونرجح أن جدّه هو المذكور في (تاريخ السودان 169 - 170)، حيث جاء ذكر المسمّى بوزو بن أحمد إد عثمان بوصفه أحد أعيان تيشيت الذين قتلوا مع آخرين من أعيان المدن، ضحوة الأربعاء 24 محرّم 1002 هـ من قبل الباشا محمود بن زرقون، عقاباً لهم على تلكنهم في البيعة للمنصور السعدي بعد غزو تنبكتو والسودان.

ولعل هذا الوجود القديم لإدو الحاج في تيشيت، هو ما يعنيه الشيخ سيد محمد الكنتي بحديثه عن "حرب ماسنة وإدو الحاج بتشيت أزمان كانوا تحت كنفهم حلفاء لقبيلة من ماسنة، فانهزموا وقتلت من إدو الحاج مقتلة عظيمة يزعم أهل تيشيت أنهم طموا على أشلاء جماعة وافرة منهم بنراً بصفات عظيمة ...".

وبالرغم من أن الشيخ سيد محمد الخليفة عدل ونقل عن عدول إلا أنه دون هذه الرواية في ظروف خاصة [الحرب بين كتنة وأهل سيد محمود] (إدو الحاج)، ثم إن تاريخ هذه الحرب غير معروف، وإن كان ورد في "فتح الشكور: 74" ضمن ترجمة أبي بكر بن أحمد بن ألفغ (...). المسلمي التيشيتي إنه "ما قصر الصلاة قط إلا فترة لأجل الإتيان بإدو الحاج من انيوداش [قرب أوداغست بالحوض] لما أخرجهم أخيار انتاج الماسني من تيشيت ...". والفقرة التي أوردناها هنا في أصلها اضطراب ضمن النسخة المطبوعة من الفتح.

ويرجح أن ذلك كان في القرن الثاني عشر الهجري، أو في النصف الأول منه تحديداً حسب ما يفهم من التواريخ المدينية: حوليات ولاتة، حوليات تيشيت، ..

13 وادان

تقع على بعد 100 كلمتر تقريبا إلى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط في ولاية أدرار من الشمال الموريتاني الحالي. أسسها رجال من قبيلة إدو الحاج سنة 536 هـ / 3-1152م⁴⁴. وهي دار علم عريقة تعتبر مدرستها الفقهية، إلى جانب ولاتة، أم المدارس العلمية في البلاد، وقد أضحت منذ القرن العاشر للهجرة (ق16م) مركزاً تجارياً نشطاً على الطريق بين المغرب والسودان، ولا سيما في تصدير الملح المستخرج من "كديت الجبل".

ويرى الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي أن الاسم الأصلي لودان هو: أنوالان ومعناه بالبربرية ذو الملاحس، أي التي يأوي إليها الوحش من سباح البطرون.⁴⁵

44- راجع: المختار بن ابلول، رسالة في نسب إدو الحاج، تحقيق فاطمة بنت أو (مذكرة نهاية الدراسة، كلية الآداب، 97-98).

45- الرسالة الغلاوية.

ويعتبر ابن خلدون (808 هـ) أقدم من أشار إلى ودان، على حدّ العلم، في سياق وصفه لمجالات عرب بني منصور، حيث قال: "ومصبّ وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس، ويمتدّ إلى أن يصب في البحر ما بين نون وودان وفيافيه قصور لا تحصى..."⁴⁶ ولم يرد ذكر للتسمية التي أشار إليها الكنتي، ضمن أي من المصادر الأجنبية التي وصفت المنطقة منذ القرن التاسع للهجرة (15م) وتاليه. بينما وردت التسمية العربية "وادان" بتحريف بسيط في رسائل البرتغالي زواره (ZARARA) إلى الملك خوان الثاني (1453) بصيغة أودام (ODAME) إبان تأسيس المركز التجاري البرتغالي قرب المدينة قبل أن تتم تصفيته بفعل مقاومة السكان.⁴⁷ وذكرها لوزان في أوائل القرن الخامس عشر بنفس الاسم العربي،⁴⁸ لكن الأوصاف التي ذكرها تدل على أن المدينة كانت تعيش تدهوراً اقتصادياً، أمّا خلفه مارمول كاربخال (Carvajal Marmol) فذكر أن سكان ودان لعهده هم من "الأزير" وهم مجموعة مهجّنة بين صنهاجة والسوننكي، وأنهم يعيشون في ظلّ سيطرة القبائل الحسانية.⁴⁹ والتسمية نفسها وردت ضمن تاريخ السودان للسعدي (خلال القرن 11 هـ/17م)، ونقل الطالب أحمد بن أطوير الجنة (ت 1265 هـ/1849م) عن شيخه سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233 هـ/1814م) أن وادان اسم عربي وأنه تثنية لوادين : واد من العلم وواد من النخيل؟ وذكر الطالب في رحلته "المنى والمنة" دهشته من المثل السائر لدى الطرابلسيين والقائل "العلم ودّاني والتمر فزاني..."⁵⁰ والظاهر أن المقصود ودّان بتشديد الدال، وتقع في الصحراء الليبية الحالية بالموضع المعلوم.

والأرجح أن تكون التسمية بناء على تثنية وادي إفنون وإفرزي القديمين في المنطقة.⁵¹

وعن أولية تأسيس المدينة يقول الكنتي إن ودّان إبان مجيء إدولحاج كان يسمى أنوالان وكان سبخة ملحة، وهو "دويرات وأخصاص تعمّره قبيلة "تيزكة". فأستوطنه إدولحاج في ظل دولة أبدوكل للمتونية.⁵²

46 - العبر .. الجزء 6، ص: 67.

47 - راجع: الهامش رقم 28 من تحقيق فاطمة بنت أولرسالة ابن بلول ص: 44.

48 - وصف إفريقية ، ج 2، ص: 116.

49 - ابن بلول.

50 - ابن بلول ، 44

51 - م ص

52 - إبن كتاب ، المنهاج، ص.1 وما يليها

أما رواية إيدو لحاج فيقول بعضهم إن أولية عمارتهم لوادان "أنه قدم عليه ثلاثة رجال فوجدوه لا عمارة فيه فشرعوا في تدريس العلم والغراسة للنخيل والبناء للدور حتى حصلت فيه القرية الموجودة حينئذ، وسكنوه وتناسلوا فيه إلى الآن. والرجال المذكورون أحدهم الحاج عثمان جد أولاد الحاج، والحاج أغلي جد إدويح ولوتيدات، الحاج يعقوب جد إدياقب ثم بعد ذلك بثلاث سنين قدم عليهم أحمد صايم جد الصيام وصار يعمل معهم في كل ما يعملون فيه..."⁵³

ثم تكونت قبيلة من نسل هؤلاء الأربعة الرجال. وتضيف الرواية القول إن السكان الأصليين لوادان قبيلتان هما تفتل (أو تفرلي) وتامكون (أو كولانه) وهما من أصل مسوفي.

وفي أوائل القرن الحادي عشر (ق17) انفجرت في ودان حرب طاحنة بين تفتل وتامكونه أدت إلى هزيمة تفتل وخروجها من ودان مع حلفائها من بعض إيدوالحاج، إلى الكبله. وقد بقيت العناصر الأساسية المقيمة في ودان مشكلة من بطون إيدوالحاج: إدياقب، لوتيدات، إدويح، الصيام، الأقيتيون، وحلفاؤهم من الشرفاء (آل سيد المنتقي)، ثم من أقاربهم من كنتة (أولاد المتغبري). وتقاسمت هذه المجموعات الخطط الدينية والنظم الأهلية، حسب وزنها البشري والديني، والثقافي والاقتصادي.⁵⁴

1.4 شنقيط

شنقيط في الأصل مدينة من "أدرار" إلى الشمال من وسط موريتانيا الحالية.

تأسست شنقيط سنة 660 هـ/1261م قرب مدينة أخرى تعرف بـ "أبير" بنيت حسب التقاليد المدونة لسكان المنطقة سنة 160 هـ/776م، ثم اندثرت في ظروف اختلاف سكانها في توقيع حد القصاص على أحد أعيان المدينة مما أدى إلى هجرة بعض قبائلها إلى جهات مختلفة، وبعضهم هاجر إلى موضع قريب من المدينة القديمة، وفيه أنشأوا المدينة الجديدة.⁵⁵

وللباحثين الغربيين نقاش حول أقدمية المدينة، جمعه الباحث هـ.ت. نوريس (NORRIS.T.H) وخرج بخلاصة رجح فيها تلك الأقدمية.⁵⁶

53 - ابن كتاب، م.س. مواضيع مختلفة. وابن كتاب، (م مختلفة)

54 - ابن كتاب، م.س. مواضيع مختلفة. وابن كتاب، (م مختلفة)

55 - راجع : عن تأسيس شنقيط:

- أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، (الفصل الخامس شنقيط وخطها)

- ابن الحاج إبراهيم (سيد عبد الله)، صحيفة النقل (مخطوط). توجد نسخة من ملحقه ضمن ترجمتها للإنجليزية في عمل نوريس الآتي ذكره

NORRIS, HT, The History of Chinguat According to the Idwaly Tradition in B: IFAN DAKAR T24 série B -56

وبالرغم من ذلك فإننا لا نعرف، على حد العلم، ذكرًا لمدينة شنقيط في أي مصدر مكتوب قبل القرن التاسع (15 م).⁵⁷

وفي أواخر القرن الحادي عشر للهجري وبداية تاليه (17-18م) أضحى اسم مدينة شنقيط رائجاً في المشرق والمغرب، نظراً لنشاط ركاب الحاج القادمة من هذه الوجهة حيث صارت المدينة منطلقاً لركاب الحاج الصحراوية.⁵⁸

وتقول الرواية المحلية أن الذين بنوا شنقيط هم محمد غلي جد قبيلة الأغلال، ومعه رجال من قبيلة إدوعل، منهم أعمار جد أمكاريج ويحي، جد جمهور إدوعل الكحل وآخر هو جد إدبجر من إدوعل. وقد تقاسم المعنيون الرئاسة والخطط الدينية مدة طويلة.⁵⁹

واستمرت مؤسسات المجتمع الأهلي الشنقيطي حوالي القرن تقريباً. يقول عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت: 1233) "... وقد كان العلويون يقدمون من معهم من الزوايا لإمامة الصلاة وجعلوها أولاً للشماسدة ثم جعلوها للأغلال، فتغيروا لذلك، وخرجوا من شنقيط، فذلك سبب خروج الشماسدة من شنقيط، وقد خرجت يوماً من شنقيط رفقة ثمانية وثلاثون ألف بعير موقورة (موقرة) بالملح، عشرون لأهله وإثنا عشر لأهل تيشيت وباعت الرفقة كلها في زار فتعجب الناس أي البلدين أعمار. مع اتفاق الكلمة فإذا مات منهم شيخ رأسوا عليهم آخر، فبقيت دولتهم بشنقيط دولة دين وعلم ودنيا ثلاثاً وثمانين سنة مدة حياة الشيخ سيد أحمد بن الوافي [الغلاوي]. فلما توفي وقعت بينهم الحرب العوان واعتزلها خلق ...⁶⁰ وفي العهد الحساني أضحى شنقيط ضمن سلطة أولاد يحيى بن عثمان (إمارة أدرار) مع بقاء النظام الأهلي الشنقيطي مستمراً بالرغم من الضغوط الجبائية المنظمة والعشوائية التي كانت تفرضها بعض قبائل الإمارة وقلول من المحاربين القادمين من جهات مختلفة. ولكن ذلك لم يمنع تطور المجتمع الأهلي الذي شاد في تلك المدن نظماً حضارية مكيمة بالرغم من نأي القصد وبعد الشقة عن الأمصار الثقافية العربية الكبرى. وكذا مشاق الحياة في الصحراء وشظف العيش واضطراب سلك نحل الاجتماع بفعل الحروب والتقلبات الطبيعية والاقتصادية الدورية.

57- ذكرها عبد الرحمن السعدي (قبل 1433)، تاريخ السودان، ص: 22.

58- ولد السالم، حماء الله : موريتانيا في الذاكرة العربية، الفصل الأول (قيد النشر).

59- ابن حامد، "جزء الأغلال"، ص: 1 وما يليها.

60- صحيفة النقل، مخطوط من دراسة نوريس الأنفة الذكر.

النظم الحضارية والثقافية في المدن القافلية

من أهم هذه النظم الخطط الدينية والإمامة والقضاء وركب الحاج ونظام جماعة الحل والعقد الذي كاد - قبل الاستعمار - يستحيل مجتمعا أهليا "مدنيا" راسخا قد تنبني عليه تقاليد حديثة بعد ذلك.

1 - جماعة الحل والعقد

اتجه الفقهاء في ظل فراغ الحكم إلى التسويغ الفقهي لدور جماعة الحل والعقد في تطبيق الأحكام والقيام بمصالح الناس.

من أشمل النصوص الإفتائية بشأن تشريع قيام الجماعة مقام السلطان في ظل فراغ السلطة ما ورد في نوازل حمى الله التيشيتي (ت 1169هـ) " .. حيث سئل من جماعة المسلمين هل تقوم مقام الحاكم في كل شيء ولو في الحدود أم لا؟ فأجاب "الجماعة في البلد الذي لا حاكم فيه تقوم مقام الحاكم في الحدود وغيرها. قال "الونشريسي ينقل العلامة سيد علي الأجهوري عند قول أبي المودة بالعدول وخيران. "وسئل أبو جعفر أحمد بن ناصر الداودي عن امرأة أرادت النكاح وهي ثيب ولاحكام بالبلد وأولياؤهم غيب: أترفع أمرها إلى فقهاء البلد فيأمرهم من يزوجه وكيف إن لم يكن في البلد عالم ولا قاض فلتجتمع صلحاء البلد ويأمرهم بتزويجها.

وسئل عن بلد المصامدة لما إذا لم يكن عندهم سلطان يوجب الحدّ على السارق وشربة الخمر وغيرهم من أهل الفساد هل لعدول ذلك الموضع وفقهائه أن يقيموا الحدود إذا لم يكن سلطان وينظروا في أموال اليتامى أو الغيب والسفهاء فأجاب : بأن قال ذلك لهم وكل بلد لا سلطان فيه يضع الحدود أو فيه سلطان غير عدل فعُدول الموضع وأهل العلم يقومون مقام السلطان في جميع ذلك...⁶¹

وعلى أساس من هذا التسويغ الشرعي، يتكرّر دور جماعة الحل في ظل وضعية فراغ السلطة نفسه.

وبرغم الاختلاف في تحديد نوع وكيف هذه الجماعة ، فإن الباحثين - انطلاقا من الفتاوى الفقهية والشواهد التاريخية - ميّزوا عناصرها انطلاقا من كونهم من أعيان المكان الحائزين على سبق ديني وأخلاقي أو يسار ونفوذ أو هذا بأجمعه .

61- نوازل حمى الله التيشيتي، مخطوط، نسخة التيشيتي المحفوظة في ميكروفيلم رقم 38، تيشيت، بجامعة فرايبورغ، ألمانيا، مصورة د. محمد بن سيدي بن مولود، بقسم التاريخ بكلية الآداب بنواكشوط، ص: 33-34.

وتتلخص آراء الفقهاء المحليين بشأن جماعة الحل والعقد في: "إن الجماعة كما قصرها العرف الدلالي عند الموريتانيين تعني مبدئياً مجموعة الرجال المنتمين إلى القبيلة وهم جماعة الحل والعقد أي "من تمدّ إليهم الأيدي عند النوائب" ممن توفرت فيهم شروط ثلاثة هي العدالة والعلم بشروط الإمامة والرأي. فتمثّل هذه الجماعة ذلك التنظيم السياسي الدائم الذي يجمع بين السلطات الثلاثة القضائية والتشريعية والتنفيذية (...) ويطلق عليهم عادة "جماعة الحل والعقد". وهؤلاء الرجال يمتلكون سلطة القرار والأخذ بالمبادرة بفعل القوة العصبية أو اليسار المادي أو المعرفة الدينية والمصادقية الأخلاقية التي يحظون بها داخل المجموعة.⁶²

ويتميز دور جماعة "الحل والعقد" في المدن غالباً بأنه يتجاوز ما وصفه هذا الباحث من أدوار لهذه الجماعة ضمن قبائل الزوايا في البوادي سواء من حيث البنية التركيبية الأكثر تعقيداً بفعل الحياة المدينة، أو بفعل دوره المتأني من طبيعة الاجتماع الأهلي الذي يؤسسه.

والظاهر أن مصطلح "أهل الحل والعقد" مكافئ - مع بعض الفروق - لمصطلح أعيان القائم في المجتمع المغربي، وينبغي أولاً أن نميز بين دلالة هذه الكلمة وتاريخ مضمونها الاجتماعي.

إنّ التعريف اللغوي "في اللسان" عين كل شيء "خياره، وأعيان القوم أشرفهم وأفاضلهم..." يشير إلى الشهرة والتقدّم. وقد استعملت عبر العصور الإسلامية بمعنى النخبة والصفوة، ولذلك نجد تعابير مثل "أعيان العلماء"، "أعيان الطلبة"، "أعيان الجيش"، فلكل فئة أعيانها. كما أن الأعيان هم في النهاية أهل الجاه، وفي الاصطلاح المغربي⁶³ فإن الأعيان هم أهل الجاه من غير الشرفاء وقادة الجيش. فهم يشملون العلماء والفضلاء وكبار التجار والحرفيين. وبالطبع فإن هذه الفئات الأخيرة ذات الامتياز لم تكن تخضع لضوابط قانونية قارة بل يعتورها الازدياد والنقصان بحسب الميزان الاجتماع العام.

أما الأعيان في قبائل الزوايا في البوادي وفي المدن الموريتانية، فهم جماعة الحل والعقد حصراً نظراً لغياب نظام سياسي مركزي يفصل بين الفئات العليا وتلك المرتبطة بها والمتغيرة بتغير الميزان الاجتماعي. ولذلك نجد مثلاً في رسائل العلماء ووثائق الإمارات ذكر الأعيان علماً على أهل الحل والعقد من الزوايا وحسان معاً.⁶⁴

62 - يحيى بن البر: الفقه والسلطة والمجتمع.

63 - معلمة المغرب، ج2، مادة الأعيان، ص: 525 وما يليها.

64 - من ذلك الوثيقة الآتي ذكرها بشأن احترام حريم إمام شنقيط وأقاربه وأسرهم. وقد أملى الوثيقة ابن عبيد أمير أدرار وأشهد عليها الأعيان من "العرب" و"الزوايا" كما تقول الوثيقة.

وإذا تركنا جانبا خطي القضاء والإمامة، على ما لهما من دور مركزي في جماعة الحل والعقد المدنية والبدوية، فإن الرؤساء "المعينين" من قبل تلك الجماعة أو المتصدّرين للأمور الجمهورية من ردّ المظالم وكفّ اليد العادية والسعي إلى تأمين السبل وإقامة رسم ركب الحاج وردع الفساد الأهلي، سواء هؤلاء أو أولئك، فقد وجدوا جميعا في مختلف المدن الصحراوية سواء تلك المعمورة من قبيلة واحدة أو من قبائل متعددة.

الخطط الدينية في مدن القوافل

تعتبر هذه الخطط من أهم المؤسسات الثقافية والحضارية إلى جانب وظيفتها الدينية الأساسية، وهي - كذلك - من أوضح الشهادات على التطور الحضاري للمدن القافلية، حيث تعتبر هذه النظم من لوازم المدينة العربية الإسلامية في الأمصار الكبرى.

خطة الإمامة

عرفت البلاد الصحراوية، المساجد قبل المرابطين، وقد وجدت المساجد في العواصم التجارية الشهيرة: كمبي صالح وأوداغست [تاكدأوكست] ..

وبرغم أن المصادر تضمن بشاف عن المساجد الصحراوية في عهد المرابطين، فإن المفهوم هو وجود جامع مقبول الشكل في أزوكي العاصمة المرابطية في أدرار بعد فتحه المشهور. والمهم كون المرابطين أورثوا الصنهاجيين، من بين ما أورثوهم، تقاليد في الإمامة راسخة مرّ بنا ذكرها.

وعلى أساس من ذلك - بالتساوق مع التحولات المذكورة - تبلورت الخطط الدينية في المدن الصحراوية وأصبحت لها منذ القرن التاسع وتاليه (ق15-16هـ) أهمية استثنائية في الحياة المدنية العامة.

فقد أضحي المسجد مركز الدراسات المعمّقة والمفتوحة في ذات الوقت حسب نوع الحلقات ومستوى المتلقين، وصارت وظيفة الإمامة خطة هامة تتنازعها الأسر الصحراوية والسودانية الشهيرة، وبذلك صارت الخطط المسجدية منه معينات التراتب المجتمعي وسلما إلى "الجاه" والنفوذ.

وتحفل مؤلفات القوم بسلاسل الأئمة والخطباء وتسرد أخبار كبار العلماء والأعيان الذين تنازعوا القوامة على تلك الخطط الدينية .

وإذا تركنا جانباً مساجد "الساحل" السوداني، لوجودها في ظل سلط سودانية اهتمت بها ورعتها، فإننا واجدون المساجد الصحراوية من نتاج العمل الأهلي بناء أو عناية واهتماماً. ولا أدلّ على أهمية المساجد الصحراوية ونضج العمل الأهلي بها، من أن هذه المساجد لم تعرف أبداً مسألة تصحيح القبلة التي طرحت على أرباب المساجد المغربية مثلاً، ولا سيما في مدينة فاس حيث ملأت الدنيا بها وشغلت الناس ردحاً طويلاً.

"ويرجع تاريخ انحراف القبلة في فاس إلى عهد تأسيس المدينة حيث وجّه إدريس الثاني محرابي المسجدين الأولين اللذين بناهما في فاس وهما جامع الأشياخ بعدوة الأندلس، وجامع الأشراف بعدوة القرويين، نحو الجنوب بدل الشرق لضعف الوسائل المساعدة آنذاك على تحقيق الجهات وتحديد سمة الكعبة، ووقعت في نفس الخطأ بعد ذلك الأختان الفهريتان، فجعلتا محرابي جامعي القرويين والأندلس إلى جهة الجنوب. وتوالى بناء المساجد في فاس على تقليد القبلة المنحرفة (...) ولما وسع المرابطون في أوائل القرن الهجري السادس جامع القرويين انتبه الفلكيون الذين كانوا في بلاطهم إلى خطأ اتجاه المحراب، وعزموا على تغييره لولا أن اعترض سبيلهم الفقهاء، وكان لهم نفوذ كبير في الدولة."⁶⁵

كما طرحت المسألة في عهد الموحدين عندما بنى يعقوب بن عبد الحق المريني في أواخر ق7هـ مدرسة الصفارين بجوار القرويين. ودقق الفلكيون جهة قبلتها مكتشفين بذلك انحراف قبلة المسجد المجاور. وقد طرحت مسألة "القبلة" من قبل الحجاج المغاربة على علماء المشرق "وبذلك" دولت "مسألة القبلة في فاس"⁶⁶.

كما توالى النقاش بين العلماء بالمغرب وبينهم مع نظرائهم في طرابلس وليبيا والقاهرة⁶⁷.

وقد يعترض معترض على خلوّ الحياة المسجدية الصحراوية من ذكر لهذه النازلة بالقول إن المسؤول عن ذلك هو اللامبالاة والإهمال المتأتي من المحيط البدوي وبساطته. لكن هذا الرأي يصبح ضعيف السند إذا ما تذكرنا أن الأبحاث الأثرية التي أجريت في مساجد المنطقة (مثل قنب صالح، أوداغست) نبهت على التزام بناتها توجيه المحراب الوجهة الصحيحة⁶⁸.

65 محمد حجي: الحركة الفكرية، ط، الدار المغربية للنشر، 1977، ص290.

66 نفس المصدر.

67 نفس المصدر ص: 292 - 293

68 ولد محمد نافع: مختصر الآثار الموريتانية، منشورات جامعة نواكشوط، 2002.

يضاف إلى ذلك التواصل النشط بين المدن الصحراوية والأمصار الإسلامية الكبرى في المغرب والمشرق، والذي مكن أعيان البلاد من التفاعل المستمر مع "النوازل" الكبرى آنذاك، ثم إن مصنفات التنجيم والفلك والحساب والتوقيت كانت رائجة في الحلقات العلمية للمدن الصحراوية منذ عهد طويل.

ومهما يكن فإن المساجد وما يتعلق بها من وظائف أصبحت رائجة في الحياة الأهلية المدنية، منذ بعض الوقت، وتطور ذلك بتطور بناء المساجد وإعمارها.

أولاً: المساجد

كان في كل مدينة صحراوية مسجد "جامع كبير"، وقد توجد مساجد أخرى في حالات خاصة.

أ - مسجد ولآة

من أقدم المدن الصحراوية، كما ذكرنا آنفاً، ولذلك من المفهوم أن يكون لمسجدها تلك الصفة. وكان هناك تقليد ولآتي استمر إلى عهد الاستعمار يقضي بالحرص على عدم تعدد المساجد بالمدينة ربما لأسباب شرعية أو لغايات سياسية تبقى الإمامة في مجموعة سكانية واحدة.

ويفهم من رواية الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت 1241هـ) أن مسجد ولآة العتيق من إنشاء أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري الذي "فتح الله على يديه قطر إفريقية إلى غانة إلى برك الغماد المدعو الآن بركك وخلفه ابنه العاقب ببيرو [ولآة] (...) وقبره بصحن مسجدها الذي هو بانيه"⁶⁹ حسب رواية الكنتي. وبرغم ذلك يروي البكري⁷⁰ نقلاً عن صالح بن أبي صالح أنه لم يصح عنده أن عقبة بن شيتا من مساجد المغرب إلا مسجداً بنفيس. أما رواية الكنتي فيمكن صرفها إلى حملات أحفاد عقبة وهي معروفة سبق عرضها.

ويرى الباحث جاك مونيه (Jacque Meunie) أن الأمر يتعلق بقاضي تنبكتو العاقب بن القاضي محمود الذي تولى الإمامة في جامع ولآة في الفترة ما بين 1560 و1580م مقفلة من حجه المعروف.

69 الرسالة الغلاوية.

70 المغرب.

ومهما كان حظ هذه الفرضية من الصحة فإن مؤرخ المدينة الطالب ببكر المحجوبي (ت 1117هـ) يقول إن مسجد ولآة "بني في القرن الثاني [الهجري] فله اثني عشر قرناً كما سمعنا ذلك من أكابر قريتنا (...) ⁷¹ ثم يستطرد مبيناً فضل المسجد وأوصافه: قائلاً "مسجدنا لله الحمد من أحسن مساجد التكرور، وهو من عند محراب الإمام أربعة صفوف وربع صف منهم ثمانية وخمسين سارية وثمانية منها ملتصقة بالجدران، وغير ذلك واقف يقال له صفّ القدر وصفان عن ميمنة الصحن يقال لهما صفّ المعجزات، وصفان أيضاً عن شمال الصحن يقال لهما صفوف البخاري، وصفان أيضاً عن مشرق الصحن. والصحن صحن كبير يصلون فيه زمن الحر المغرب والعشاء والصبح، وهو من المسجد وله حرمة [...] والأخر عن شماله يقال له "الحوش الساحلي"، كل منهما ليس له حرمة المسجد ولا تصح فيهما الجمعة، ويجوز الجمع بينهما بعد الإمام ويجوز منهما الكلام والبصاق وغير ذلك مما لا يجوز في المسجد وصومعته عن مغربه...".

وتضمن الرواية الولاتية بشاف عن أولية هذا المسجد وعمارته لكنها تمدنا ببعض الأخبار عن دور سكان المدينة وأهل حلّها وعقدها مجتمعين في ترميم المسجد كلما دهمته جائحة مثل تلك التي جرت في سنة 1233هـ حيث سقط مسجد ولآة الكبير في شهر شوال إلا صومعته ومحاريبه ومناره [...] ⁷² وكان ذلك بفعل الأمطار الهائلة بغزارة.

وأورد جدو بن الطالب الصغير البرتلي الولاتي عن هذه الحادثة ما نصه ⁷³: "[...] وفيه [1233] جاءت سحابة عظيمة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر لتسع ليالٍ خلت من شوال وسقط مسجد ولآة كله سقوطاً شديداً لم يبق منه إلا منارته ومحاريبه وذلك من لطف الله الخفي لتعذر بنائهما. واجتمع أهل ولآة كلهم على بنائه وفي اليوم الحادي والعشرين على سقوطه تم بناؤه [...] حين سقط اجتمع أهل القرية والفطنة في البناء وعزموا على بنائه ولو لم يعنهم الله لا ينتهه إلا بعد سنين عديدة [...]".

وإلى جانب هذا المسجد الكبير كان هناك مسجد أصغر من إنشاء جماعة إيلبه الجكنية التي كانت تسعى إلى اقتطاع حصة من الخطط الدينية المحتكرة من قبل المحاجيب بني مسد إيديلبه في سنة 1176هـ. ومن أشهر أئمة زين الدين اليلبي وقد توفي سنة 1215هـ.

71 منح الرب، ص 264.

72 حوليات ولآته.

73 تاريخ جدو، ص 106.

ودفن في مسجده. وقد بقي هذا المسجد ثانوياً لا سيما بعد الخروج المتوالي لإيديلبه من ولّاته. وإلى جانب مسجد ولّاته يأتي المسجد الكبير في تيشيت في المرتبة الثانية.

ب. مسجد تيشيت

مسجد قديم أسسه الشريف عبد المؤمن القادم من سبخة أجل (؟) في بحر القرن السادس (ق12م). لكن منارة المسجد لم يتم بناؤها إلا في عهود متأخرة، حيث يرد أول ذكر لإنشائها في الحوليات سنة (43 - 1842م). ويرد وصف مفصل للمسجد وعمارته وزخارفه في عمل ج. مونه* المشار إليه.

وتدل النوازل التيشيتية بشأن المكوس ، الأنف ذكرها، على أن موقع المسجد كان في وسط دور الشرفاء والطلبة، وأنه كان أول ما أنشئ من المباني في المدينة.

ج. مسجد شنقيط

لا نملك عنه من الأخبار إلا قول سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233هـ)⁷⁴ [...] "كان بشنقيط أحد عشر مسجداً بالجامع العامر اليوم وهو العتيق وله اليوم 1205 [أو 1208هـ] نيف وأربعمائة سنة" [...].

د. مسجد وادان

هو المسجد العتيق الذي بناه الحاج المؤسسون لمدينة وادان في حدود عام 35 - 36هـ حسب الرواية الشائعة. وهو موصوف بالعتيق تمييزاً له على المسجد الجديد الذي بناه أوائل القرن 13هـ. رئيس وادان "يحظيه بن الفاضل [...] وهو الذي بنى مسجد وادان الموجود اليوم عندما وقع الخلاف على الإمامة في العتيق الذي بناه الحاج [...] حسب رواية ابن كتاب⁷⁵.

74 صحيحة النقل.

* ج مونه، ص 67 و 68 و 69.

75 - المنهاج، ص 5.

ثانيا : أئمة المساجد المدنية

أ - أئمة مسجد ولاتة

احتفظ المحاجيب بهذه الخطة منذ العهود القديمة في ولّاة إلى أيام الفرنسيين . يقول الطالب ببكر المحجوبي بهذا الشأن ما نصه: "[...] أعلم [...] أن عادة أهل ولّاة في الإمامة موافقة للشرع العزيز فهي خالدة دائمة في المحاجيب ما أقاموا الدين.

و[...] إمامة ولّاة لا تكون إلا في المحاجيب في بيت العلم منهم والدين والنسب والخلق.

فكانت أولا في بيت منهم يقال له الإمامات بيت علم ودين وصلاح وولاية. فلما انقرض العلم والدين صار في بيت أهل أحمد الولي تولّاها أحمد الولي بنفسه وهو الذي جمع بين الإمامة والرئاسة والقضاء والولاية، ثم صارت في آل العويدي.

ثم صارت في بيتها التي هي فيه اليوم، حيث تولّاها فيهم الإمام عمر مم، فهي فيهم من القرن الحادي عشر إلى يومنا هذا في القرن الرابع عشر. وهذا البيت، ولله الحمد، بيت علم وصلح ودين وحسن خلق وخلق أهل للإمامة⁷⁶.

ومن أشهر الأئمة في ولّاته:

1. سيد أحمد الولي بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الله المحجوبي الولاتي (1034 - 1095هـ)، ترجم له صاحب فتح الشكور⁷⁷ وحلاه بـ"قاضي ولّاة وإمامها ومدرّسها". وقال عن إمامته: "هو أول من وليّ الإمامة من بني الفقيه عثمان وكانت قبل ذلك في الإمامات".

2 - الإمام عمر مم بن محمد بن أبي بكر [...] بن الفقيه عثمان الولاتي (ت 1201هـ): ترجم له البرتلي (الفتح: 186 - 190) ترجمة حافلة ذكر فيها أن المترجم "جمع الإمامة وقراءة الحديث والتعليم للعربية، ومكث في الإمامة أربعين سنة لم يسهب فيها إلا نادراً...".

3. الإمام محمد عبد الله بن الإمام عمر مم (ت 1214هـ) : ابن سابقه، قال عنه البرتلي⁷⁸: "تولّى الإمامة قبل وفاة أبيه بنحو عام وهو حديث السنّ ولما دخلها نبذ صحبة الأحداث ومعاشرتهم وأقبل على الاشتغال بالمسجد والحديث [...]".

76 - منح الرب الفضل، ص 263 - 264 .

77 - نفس المصدر، ص 41 .

78 - نفس المصدر، ص 142 .

4 - الإمام أبو بكر بن محمد أسره بن الشيخ عبد الله بن أحمد لعويدي المحجوبي (ت 1261هـ): ترجم له المحجوبي⁷⁹ وقال: "[...] كان قائماً بإصلاح المسجد ونظافته يكنسه بيده ويبنيه أيضاً ، لا ترى موضعاً فيه زمنه إلا نظيفاً، وتيتم المسجد بعد وفاته. مكث في الإمامة أربعين سنة [...] والقائمة طويلة مطروقة في تراجم أصحابها في المصادر المتوافرة.

ب - أئمة مسجد تيشيت

اختص شرفاء تيشيت بإمامة المسجد، وكانت على وجه الخصوص في أبناء الإمام أحمد بن الإمام محمدو الجامع ويعرفون بأهل الإمام "ويعرفون بأئمة تيشيت لتسلسل الإمامة فيه .."⁸⁰

فمنهم على سبيل المثال :

1. الإمام محمد بن الإمام حمى الله بن الإمام محمد بن الإمام محمد بن الإمام محمدو (ثلاثاً) بن أحمد بن الإمام محمدو الجامع حيث توالى الإمامة في آبائه فتأمل.
2. محمد بن الإمام محمد بن محمد (ت 1245هـ) كان من أئمة تيشيت حسب تاريخ ابن انبوجه نقلاً عن تاريخ ابن إطوير الجنة⁸¹.
3. لإمام محمد بن أحمد بن الإمام (ت 1246هـ) ابن عم سابقه، وقال ابن إتيوجه: "استخلف في الإمامة أحمد بن إمام تيشيت وقيل غيره"⁸².
4. سيد الشريف بن محمد بن أحمد (ت 1288 هـ) ذكره في حوليات المدينة وقال: إمام تيشيت".

ج - أئمة شنقيط

أهم ما وصلنا على حد العلم، بهذا الشأن النبذة المعنونة نقلة في أسماء أئمة شنقيط،⁸³ تأليف أحمد بن محمد محمود الغلاوي الشنقيطي ونصّها: "[...] أخذت عن أدركنا من سلفنا

79 - ابن حامد جزء الشرفاء، ص 4.

80 - ابن حامد جزء الشرفاء، ص 4.

81 - نفس المصدر.

82 - نفس المصدر.

83 - ميكرو فلم رقم 73 / رقم الفلم 94/2 والوثيقة مؤلفة سنة 1391هـ. ضمن محفوظات الأفلام بقسم المخطوطات، دار الثقافة.

الماضي أن أول إمام راتب فيه [مسجد شنقيط] هو الولي الصالح محمد قل بن إبراهيم أبو قبيلة الاقلال فيه ثم بعده ابنه محم المعروف بمحمد ثم ابنهما موسى بن محمد ثم أحمد بن موسى، ثم أخوه عبد الله، ثم أعطى أهل البلد الإمامة لأبناء شمس الدين، ثم أدى ذلك إلى نزاع الإمامة منهم. ويقال إن ذلك من أسباب خروجهم ثم رجعت إلى أبناء محمد قل وصار فيها حبيب الله، ثم ابنه الوافي، ثم أخوه حنبل ثم الولي الصالح العالم المتقن المستجاب عنده الدعاء فيما رواه الشيخ سيد أحمد بن الوافي ثم إبراهيم بن حنبل ثم ابنه الإمام محم ثم ابن عمه محمد بن الحسين إمام الوظيفة [كذا في الأصل] ثم أخوه الإمام الحاكم المعروف بحبت، ثم الإمام سيد محمد بن الإمام حميد، ثم الإمام عبد الرحمن بن الإمام سيد محمد، ثم محمد بن الإمام عبد الرحمن، ثم محمد بن الحسن ثم عبد الرحمن بن البخاري بن أحمد محمود وهو أطولهم مدة حيث مكث فيها 39 سنة.

ثم محمد عبد الرحمن بن السبت، ثم محمد عبد الله بن الغلام، ثم الدي بن السبت، ثم سيد أحمد بن عبد الرحمن ابن أحمد محمود، ثم محمد الأمين بن الغلام، ثم سيد أحمد بن السبت الإمام الحالي 1311[هـ]. وأما من يصلي فيه من غير ترتيب عند تخلف الإمام فكثير علويون ويكريون، وقد صلى محمد المختار بن محمد يحيى الولائي مدة قصيرة عند مغيب الإمام الراتب بأمر من العالم الشيخ بن حامني.

خطة القضاء

إذا كان الإسلام المرابطي قد مسح الطاولة مسحاً، بتصفيته الجيوب البدعية والوثنية بين السودان والمغرب، فإن الحركة المرابطية قامت أيضاً بتوحيد المجال التشريعي بقضائها على الأعراف القبلية والمكوس والجبايات اللاشرعية. ولذلك قال البكري: "[إن] هذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمئة بدعوة الحق وردّ المظالم وقطع المغارم"⁸⁵. كما أن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين قام بإنهاء القضاء العرفي في الجبال والبوادي⁸⁵.

ولا نعرف من قضاة العهد المرابطي بالصحراء غير المتكلم الأشعري محمد بن الحسن الحضرامي المرادي (ت489هـ) الذي تولّى خطة "قاضي قضاة" المرابطين بمدينة أزوكي في أدرار⁸⁶.

84 - المغرب، ص164

85 - نفس المصدر.

86 - ابن حامد: الحياة الثقافية، ص5

ولم تصلنا أخبار عن قضاة الفترة الموالية للمرابطين، قبل أن يتكامل حضور الأسر الصنهاجية في مدن الساحل السوداني وهي تنبكتو وجني، وفي مدينة ولآة الصخراوية أيضاً. يتضح ذلك من تراجم قضاة تلك المدن الوارد ذكرها في رحلة ابن بطوطة الذي زار مدينة ولآة سنة 753هـ/1353م⁸⁷. وكذا ضمن تاريخ السودان للسعدي⁸⁸ ونيل الابتهاج لأحمد بابا وغيرهما⁸⁹.

أما في العهد الحسانى (17-19)، وهو الذي يهمنّا هنا، فقد عرفت المدن والبوادي قضاة من مختلف المراتب والأصناف. وسنعرّج أولاً على أنواع القضاة قبل أن نخوض في التمييز بين مستويات المؤسسة القضائية الأهلية.

I- قضاة الجماعة

وجد هؤلاء في المدن وفي ظل الإمارات والرئاسات الحسانية حيث يتم تنصيبهم من قبل أهل الحلّ والعقد في المدن، أو من قبل الأمراء المتغلبين. وتشاكل خطة قاضي الجماعة في المغرب الإسلامي عموماً نظيرتها في المشرق والمسماة مرتبة "قاضي القضاة". وبرغم ذلك فإن القضاة الكبار في البلاد الموريتانية لم يسموا قضاة جماعة لكن الوضع العام كان يشعر بذلك. ويعتبر هذا المستوى من القضاء أرفع المراتب القضائية في البلاد الموريتانية، كما كان يعتبر القاضي صاحب هذه المرتبة في الإمارة عضواً في هيئة كبار رجالها. ولعله كان يلعب دوراً يشاكل جزئياً دور "السلطة القضائية" الحالية مع الفارق البين في تاريخية المفهوم.

أما في المدن فقد كان القاضي هو الرئيس الفعلي وعادة ما يكون من أسر محدّدة "تتوارث" المنصب أو غيره من الخطط كما هو شأن المحاجيب في ولآة، لكنها لم تعرف مرتبة قاضي الجماعة الذي عرفته إفريقية لأول مرة سنة 660هـ/1262م في عهد المستنصر⁹⁰.

ولم تعرف البلاد الموريتانية التمييز بين قاضي الجماعة وقاضي الأنكحة. كما لم تعرف المنطقة، أيضاً، القضاة الآخرين المعروفين في إفريقية خلال ق11هـ مثل القاضي المختص

87 - تحفة النظار، ج2، ص19.

88 - تاريخ السودان، ص. 62-66.

89 - نيل الابتهاج، ص. 353، 587، 597، 607.

90 - راجع روبر برونشفيج، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 120.

بقصاص المعاملات و"قاضي الأهلة".⁹¹ وتشهد النصوص الفقهية النوازلية على دور جماعة الحل والعقد في نصب قضاة الجماعة هؤلاء.

سئل حمى الله التيشيتي (ت 1169هـ) "عن جماعة المسلمين هل تقوم مقام الحاكم في كل شيء ولو في الحدود [؟] فأجاب: الجماعة في البلد الذي لا حاكم فيه تقوم مقام الحاكم في الحدود وغيرها [...]".⁹²

وذكر سيد عبد الله بن الفغ سيد أحمد العلوي (ت: ق 12هـ) في نوازل "أن تقليد القضاة يكون بنصب السلطان أو جماعة المسلمين في بلد لا سلطان فيه أو يتعذر الوصول إليه [...]".⁹³

وصرح الشيخ سيد المختار الكنتي (ت 1811/1226) بوجوب قيام جماعة الحل والعقد بنصب القضاة في حال فراغ السلطة، فقال: "وأما القاضي فهو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، فإن كانت الأرض سائبة أو في حكم السائبة وجب على الجماعة الصالحة تقديم قاضٍ [...]".⁹⁴

وسئل عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233هـ) "هل يكون الانتصاب للقضاء من جهة السلطان أو جماعة المسلمين في بلد لا سلطان له [؟] فأجاب بأن الانتصاب للقضاء يكون من جهة السلطان أو جماعة المسلمين في بلد لا سلطان فيه أو يتعذر الوصول منه إلى السلطان كما ذكر خليل: "ولا لجماعة المسلمين". ونصب جماعة المسلمين يكون صريحاً والتزاماً بأن يروا الناس يذهبون إلى شخص المرة بعد المرة ولا ينهونه ولا الذاهبين إليه، والجماعة التي تنصب أحداً للقضاء لا بد أن يكونوا عدولاً عالمين بشروط القاضي عارفين بالمصالح".⁹⁵

وتلخص الفتوى التالية لجعفر بن المهدي النعماني (ت 1311هـ / 1894م) مرتبة قاضي الجماعة ومشمولات حكمه: "[...] إن القاضي هو من ولّاه السلطان أو الأمير المفوض إليه أو الجماعة القضاء على بلد معين تكون ولايته مقصورة على أهل ذلك البلد، مبنًى حضر

91 - نفس المصدر. ص 121.

92 - النوازل.

93 - نقلاً عن: ابن البراء، ص 69.

94 - البرد الموشي في قطع المطاعم والرشي، (نسخة زاوية الششيخ سيد المختار الكنتي، انواكشوط)، ص 8.

95 - النوازل.

منهم ومن غاب. ولذا فقد تتسع ولايته وقد تضيق بحسب ما ولي عليه، إذ قد يولى على قطر كبير يشتمل على بلاد كثيرة، وقد لا يولى إلا على قرية واحدة أو محل كحال قضاة أهل الحوض. وأياً ما كان من ذلك فإن ما له الحكم إلا على من حضر عنده في محل ولايته من ساكن فيها أو غائب إليها وهو من غير أهلها، كما أن له الحكم على الغائب من ولايته وهو من أهلها. وأما الساكن في غير محل ولايته فلا يجوز له الحكم عليه ولا يجب عليه الإجابة له إذا دعي إليه إلا إذا اتفق حضوره عنده ببلده...⁹⁶

وبغض النظر عن التمييز الفقهي التقليدي بين الجماعة النائية عن السلطان والجماعة النائية عن القاضي، فإن هذه النصوص النوازلية تعكس وضعاً تاريخياً متأصلاً قوامه تسوية وتأسيس وتشريع عمل جماعة الحل والعقد في تنظيم الخطط الدينية والقوامة عليها، بل وعلى تنفيذ الحدود الشرعية التي لا ينفذها إلا السلطان الجامع في الأمصار الإسلامية.

وتدل هذه النصوص على أن هذا المستوى من دور جماعة الحل والعقد كان مبكراً ومنذ وقت طويل في المدن الصحراوية ربما قبل العهد الحساني.

ب. القضاة المُحكّمون

المحكّم من يحكّمه الطرفان المتخاصمان في قضيتهما. وعرف الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي ولاية التحكيم ومرتبها قائلاً: "إن ولاية التحكيم بين الخصمين [...] ولاية مستقاة من أحاد الناس وهي شعبة من القضاء متعلقة بالأموال دون الحدود والقصاص [...]".⁹⁷

وشدّد على أن "ما يفعله بعض أهل القرى والبوادي من تقديمهم قاضياً دون إذن من إمام فهو تحكيم لا تولية وهو محكّم لا قاض [...]".⁹⁸

وأحال على أجوبة سيدي داود التلمّي في قوله: "مثل هؤلاء المحكّمين الذين إليهم الترافع في البوادي وبعض القرى ليس لهم التكلّم في مال غائب إذا تقدم غير الوالي أو نائبه أو جماعة عدول صلحاء غير معتبر"⁹⁹.

96 - فتوى في القضاء ملحقه بكتاب فتوى الجمعة.

97 - علم اليقين وسنن المتقين في حسم الإتاوة المزورة بحق المستحقين، تحقيق حرما بن صدف، رسالة تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب، 1996-97،

98 - م، ن، ص 37.

99 - م، ن، ص 37.

والظاهر أنه يقصد بوادي وقرى أزواد التي أضحت من ظل السلطان بعد 1591م وهو تاريخ الحملة السعدية المشهورة على تنبكتو.

وبغض النظر عن هذه التنظيمات، فإننا سنركز على قضاة المدن الصحراوية مع الإلماع ببعض قضاة الجماعة في ظل الإمارات لا سيما تلك التي كان لها سلطان على المدن إجمالاً.

في كل إمارة كان هناك قاضٍ من مرتبة "قاضي جماعة" منصب من قبل الأمير ومعه، أحياناً، جماعة الحل والعقد من كل قبيلة زاوية في الإمارة.

وينبع تشريع الفقهاء لهذه التولية، من المبدأ القاضي بتشريع حكم المتغلب الحساني برغم استغراق ذمته.

ويبين النص التالي من فتوى الجمعة لجعفر بن المهدي، ضوابط هذا المبدأ وخصائصه، والنص المقصود من الفتوى هو: "إعلم إن الولاية تنعقد شرعاً بثلاثة وجوه، ذكر الماوردي منها وجهين في كتابه المسمى بالأحكام السلطانية. وذكر غيره الوجه الثالث فقال على ما نقل عنه ميارة في الوجه الثالث ما نصه: "والذي تلقينا من بعض شيوخنا المحققين أنها تنعقد بوجه ثالث وهو التغلب وعظم الشوكة ولا تجوز منازعته [...] "¹⁰⁰

واستطرد النصوص الشرعية في هذا الباب من حديث وأقوال فقهية ثم قال: "فهذه كلها شواهد يعضد بعضها بعضاً على انعقاد ولاية ابن لمحييد لتغلبه على بلاد الحوض فهو مجمع عليه اليوم بلا شك. وإذا عرفت من هذه النصوص انعقاد ولايته بتغلبه وعظم شوكته، فاعلم أن ذلك يوجب طاعته إذ لا معنى لها إلا ذلك [...] "¹⁰¹ ثم بين أن الولاية "قد انعقدت قديماً وحديثاً للمتغلبين بالتغلب وعظم الشوكة دون اختيار أهل الحل والعقد لهم" ¹⁰².

وأعطى النعماني أمثلة عريضة على أشكال الحكم المتغلب في بلاد الإسلام ثم قال: "[...] إذا تأملت جميع ما ذكرنا علمت أن التغلب واقع من لدن القرن الأول من الهجرة من أيام ابن الزبير آخر الصحابة ولاية إلى قريب من زمننا هذا [...] وإذا كان ذلك كذلك فولاية ابن لمحييد منعقدة بذلك التغلب إذ لا إمام متقدم عليه في بلاد الحوض، بل تغلب على بلاد سائبة خالية منذ أعصار متطاولة عن الإمارة وأهلها [...] ومحاربتهم مانعاً من إقامة الحدود لأجل

100 - فتوى الجمعة ، ص82

101 - م.ن، ص83.

102 - م.ن.

النزاع الواقع ولا يقدح ذلك فيما بيننا من انعقاد ولايته على ما تغلب عليه ولا في عدم جواز القيام لمن قام عليه من العربان [...] ولا يبعد أن يكون ابن لمحييميد مستكمل شروط الولاية إلا ما كان من شرط القرشية وحدها وهي لا تعتبر إلا في عقد الاختيار كما في غير واحد من كتب الأئمة. أما شرط العلم فقد بلغني أنه معتن به سؤؤل عنه مفاوض لأهله لا يخلو من عالم بين يديه يستفتيه ويستترشده وذلك كاف في حصول شرط العلم [...] فقد مهد السبل وردّ المظالم وكفّ القوي عن الضعيف وأقام حدّ القتل مرة فيما بلغني من أنه أقامه على قتلة القوناني على أن إقامته ليست شرطاً في انعقاد الولاية [...] مع أنه مقيم أكثر الحدود إلا ما كان من حدّ القتل والقطع أما الكفّ عن الظلم وردّ المظالم وقهر الطغاة على الحق فقد أتى من ذلك كثيراً وهو عليه إلى الآن أيده الله عليه وزاده على ما هنالك [...] ¹⁰³.

وإذا غضضنا الطرف عن قضاة الإمارات، مولين وجوهنا شطر قضاة المدن نجد كمّاً كبيراً من أعلام قضاة المدن قاموا بأدوار استثنائية في ردع الفساد وترسيخ تقاليد المجتمع الأهلي لا سيّما في المدن. وكانوا منصّبين من قبل جماعة الحلّ والعقد ومدعومين أحيانا من تراث "تاريخي" أسري راسخ.

في مدن بلاد أدرار [الشمال] نجد منذ أواخر القرن 11 وبداية تاليه (16-17م) محمد بن عبد الله بن أحمد قاضي ودّان وهو صاحب إلزامية المداراة لجميع قاطني ودّان كما رأينا.

ومحمد بن المختار بن الأعمش العلوي في شنقيط. والطالب جدو بن الشيخ العلوي وصفه ابن أنبوجة بقوله: "قاضي شنقيط ومدرّسها". وفي أطار تولّى محمد سيدينا بن برو الشمسدي (ت 1260هـ) قضاء مدينة أطار لعهد طويل نسبيا وعرف بالمهارة في فصل الخصام، وقد تسلسلت خطة القضاء في عقبه.

أما في ولّاية فيمدنا كتاب "فتح الشكور"، بتراجم وأخبار مفيدة لبعض قضاة المدينة مثل:

1- الحاج أحمد بن عبد الله بن علي بن الشيخ الولّاتي المحجوبي (ت 1140هـ) حلاه صاحب الفتح بقوله: "من العلماء العالمين على التحقيق التام"، وذكر بعض مؤلفاته وقال "إنه حجّ في ركب من أهل بلده ولقي رجلاً من صناديد العلماء أخذ عنهم". ويشأن تولّيه الخطط الدينية قال: "إليه انتهت رئاسة الفتوى والقضاء والنوازل بولاته" ¹⁰⁴.

103 - مصدر سابق، ص 97.

104 - فتح الشكور، ص 43 - 44.

2. القاضي الطالب أبو بكر محمد بن الحاج أحمد بن اند عبد الله الولاتي المحجوبي (1165 - 1208). ترجم له البرتلي وقال: "كان رحمه الله تعالى خيراً صيناً ورعاً تقياً نزيهاً متين الدين". وقال أيضاً: "[...] تنمّة أهل الفضل، وخاتمة قضاة العدل، وليّ القضاء بعد امتناع، واستعفي ولم يجب، وسار أحسن سيرة وياشر القضاء بنزاهة وعفة، لا يستحي من الناس في قول الحق، قرياء كانوا أو بعداء، ولا يخاف في الله لومة لائم، إشتدّ على أهل الشرّ وعدل في الحكم وزهد في النفع، أحيى تزكية الشهود بعد أن ماتت [...]"] وذكر مؤلفاته ولا سيما شرحه لمختصر خليل من مختلف المصادر على نحو دقيق سهل "أكمل منه ثلاثة أجزاء واخترمته المنية قبل تمامه ولو تمّ لقرب الفقه تقريباً حسناً".¹⁰⁵

3 - عبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ المحجوبي الولاتي (ت 1122هـ): ترجم له البرتلي وقال: "كان رحمه الله تعالى فقيهاً نحوياً قاضياً عدلاً في قضائه، بصيراً بالأحكام والوثائق، إماماً في الجماعات، جمع بين وظيفتي القضاء والإمامة". وذكر أنه ما رأى من جمع بين الخطتين في ولّاته سواه. والفقيه أحمد الولي أخذ عن ابن الهاشم الغلاوي وأجاز له ابن الأعمش، وذكر له فتاوى وشروحاً مفيدة على الأشموني وغيره".¹⁰⁶

4. عبد الرحيم بن الفقيه أحمد الولي المحجوبي، (و. 11 شعبان 1078-1130هـ) ترجم له البرتلي وحلاه بالعلم والفضائل والرئاسة والعدالة. وذكر أنه كان "عدلاً في قضائه، صلياً في حكمه".¹⁰⁷

5 الطالب بكر بن أحمد المصطفى المحجوبي (194هـ). ذكر بنفسه أنه نصّب "للقضاء بولّاية [سنة 1284هـ/1867م] بإذن من ذوي الحلّ والعقد منها وأولي العلم من جميعها ثم عزلت نفسي قبل تمام العام فلم يرضوا [...]".¹⁰⁸

أما تيشيت فمن قضاتها :

6. سيد محمد بن الصغير بن انبوجه (ت 1275هـ/1859م) هو عالم كبير وقاض مهيب، تولّى القضاء خلال الفترة (1252هـ - 1274) حيث "تولّى خطة القضاء [...] بعد ما تعيّن عليه، وعزل من كان قبل ممن انتصب للإفتاء والقضاء وهو بها قاض الآن [1274]".

105 - م.ن..

106 - م.س : 161-162

107 - م.ن. : 176-177

108 - راجع : تكملة الفتوح، م.س.

ومن قضاة تيشيت من قبيلة ماسنة.

7- القاضي محمد بن يدغور بن أحمد بن الشيخ [...] الماسني الكابي [توفي في 28 شوال سنة 1188هـ]. ترجم له البرتلي وقال¹⁰⁹ "كان رحمه الله تعالى عالماً بأصول الدين فقيهاً نحوياً قارئاً بقرأة نافع، عابداً تقياً صالحاً ولياً كثير الحياء". وذكر أنه أخذ عن الشريفين ابن فاضل التيشيتي وعن الحاج سيد محمد بن الحاج الحسن بن أغبدي الزيدي.

ومن قضاة أروان :

8. طالب الملقب "سان بير" بن القاضي سيد الوافي [...] بن سيد أحمد بن أد الأرواني¹¹⁰ (ت 1180هـ). حلاه البرتلي "بالشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة الفقيه النحوي قاضي أروان المشتهر ذكره وعلمه". وقال أيضاً: "ومعنى سننير وهو العالم الكبير بالسودانية".

وذكر أنه كان ذات منزلة عالية بين قضاة عصره. درس على الفقيه الحاج أبي بكر بن الحاج عيسى الغلاوي والشيخ سيد أحمد بن الشيخ السوقي، من مصنفاته: فتح الرب اللطيف في تخريج بعض ما في المختصر من الضعيف وصنجة الوزان في نوازل أروان. وسيأتي في عملنا هذا ذكره في سياق مسألة رشا القضاء التي أثارت نقاشاً كبيراً.

أما مدينة النعمة فمن أشهر قضاتها العالم الضليع المعروف:

9. الكصري بن عثمان الديلي الجكني النعمائي (ت 1235هـ)¹¹¹ : ولد الكصري في مدينة ولّته سنة 1150هـ / 1737م، وفيها تربى وأخذ معارفه الأولية عن والده محمد. ثم التحق بإحدى أشهر المحاضر (المدارس) في القرن الثاني عشر في ولّته وهي مدرسة ابن عمه الطالب البشير بن الحاج الهادي الديلي الجكني الولاتي (ت 1783م). وقد لازمه الكصري مدة ثلاثين سنة تصدر بعدها للافتاء والتدريس، وبعد انتقال الشرفاء إلى النعمة رحل معهم وتولّى الإمامة والقضاء إلى جانب التدريس. ألّف مصنفات عديدة منها شرح خليل ومجموع للنوازل والفتاوى يعتبر الأهم في البلاد الموريتانية حالياً.

109 - فتح الشكوك: 134

110 - م.ن.، ص. 102-103

111 - راجع: البرتلي، ص 207

وظلت أسرة آل الكصري مهيمنة على هذه الخطط الدينية ولا سيما القضاء باستثناء حالة واحدة تولّى فيها قضاء المدينة الشريف مولاي الحسن بن مولاي عبد الله بتولية من أمير الحوض المشطوفي أعلى بن محمد محمود. لكن الخطط الدينية في مدينة النعمة، كما هو شأن المدن الأخرى، ظلت بعيدة عن تدخل الأمراء عزلاً أو تولية، مما مكّن لاستقلالية الاجتماع الأهلي المدني ورسّخ من فاعليته المؤسسية.

خطة ركب الحاج

لعبت قوافل الحجّاج، التي كانت تفيّده من غرب الصحراء [موريتانيا وأحوازها] والسودان الغربي [غرب إفريقيا الحالي] إلى الحرمين لأداء فريضة الحجّ، دوراً هاماً في التواصل الثقافي بين مدن القوافل في البلاد الموريتانية والمشرق العربي، حيث ظلّت ولقرون، قناة اتصال تنساب عبرها وبغفوية المعارف والأفكار ومظاهر التفاعل الحضاريين.

وليس من شك في أن فريضة الحجّ في الإسلام كانت الدافع الأساس لسفر آلاف الحجّاج إلى المشرق كل عام، لكن هذه العملية الكبرى، حسب مختلف الشهادات التاريخية المتوافرة، لم تكن اعتبارية أو تنحو منحى ارتجالياً، بل كانت بعيدة عن ذلك كلياً.

فقد تشكّلت منذ قرون ركاب حاج سودانية وشنقيطية محكمة التنظيم على مستوى بنيتها البشرية ومواردها المالية وعلاميتها ومرشديها وفقهائها المعنيين بالنوازل الفقهية التي تعرض لرفاق الحاج بين الحين والآخر... إلى العديد من ضروب الحراسة وتنظيم الحركة والمكوّث، حسب مقتضيات الزمان والمكان.

وقد مرّ تكوين ركاب الحاج، في شبه المنطقة، بمراحل مختلفة، تشكّلت خلالها تقاليد الحج ومؤسساته المختلفة، والتي نهتم هنا منها، بركيين اثنين هما: ركب الحاج الشنقيطي وركب الحاج التكروري.

* أولاً: ركب الحاج التكروري

1- بلاد التكرور: التكرور عيليم جغرافي يشمل غرب إفريقيا وغرب الصحراء وقد يمتد إلى البحر الأحمر شرقاً.¹¹² وقد نشأ كاصطلاح "إداري" مشرقي دون أن تكون له أية أبعاد عرقية أو لغوية.

112 - يراجع المقال الهام للدكتور سيد علي محمود "التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على مصر المملوكية"، ضمن المؤلف الجماعي "العرب وإفريقيا" إشراف وإعداد د. د. رؤوف عباس (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1992) ص 85-119.

والتكرور في الأصل عليمٌ على إمارة سودانية كانت عاصمتها تقع قرب نهر السنغال غير بعيدة عن مصبه¹¹³. ويبدو أن إسلام ملوكها كان سابقاً على بدء الدعوة المرابطية¹¹⁴ التي شارك في عملياتها العسكرية الأولى بعض ملوك التكرور وأحفادهم¹¹⁵. لكن يبدو أن اسم التكرور قد تأخرت معرفته مشرقياً ربما لاختلاف نطقه عند سكان الغرب الأفريقي. وإلى هذا يشير ابن خلدون عند ما ذكر أن بعض حاج "أهل غانه" أخبره في القاهرة أنهم يسمون التكرور "زغاي"¹¹⁶.

ولعل أقدم إشارة إلى إسلام التكرور، حتى الآن، هي ما ذكره الأصولي الأندلسي ابن حزم¹¹⁷ من أنه قد بلغه في سنة (430 هـ) إسلام أهل تكرور مع ملكهم.

وقد سيطرت إمبراطورية مالي على إمارة التكرور المذكورة ، لكن المشاركة استمروا يطلقون اسمها على كامل غرب أفريقيا. وقد امتنع المنسا موسى (ملك مالي) عندما خاطبه أهل مصر بملك التكرور، فبين لهم أن الإقليم المذكور مجرد جزء من مملكته المترامية الأطراف¹¹⁸.

وعندما توسع المشاركة في إطلاق عبارة التكرور على كل أفريقيا المسلمة، كان ذلك مرتبطاً فيما يبدو، بنشاط ركاب الحاج القادمة من تلك الوجهة. ويذهب الباحثون بهذا الخصوص إلى أن المشاركة في مصر والحجاج كانوا أو لحور دلالة الاسم. ويفترض أن السبب في ذلك يعود إلى أن أول حجاج المنطقة الذين وصلوا إلى المشرق بأعداد كافية تكفي لتمييزهم كمجموعة مستقلة، قد يكونون وصلوا من إمارة التكرور التي كانت، كما قدمنا، أول الدول السودانية إسلاماً، ثم توسع المشاركة في إطلاق اسم التكرار (وأحياناً التكرانة) على كل من يأتي من هذه الوجهة¹¹⁹.

113- أثبتت الحفريات التي أقيمت على ضفاف النهر أن مدن تكرور وسيل، وهي الحواضر الأساسية لهذه الإمارة ، كانت مواقعها بعيدة عن الشاطئ. ويرى الباحث الإفريقي عبد الرحمن با، إن ملوك تكرور المسلمين وصلوا إلى السلطة بعد أن أطاحوا بأسرة ملكية وثنية كانت شديدة الارتباط بفئات السحرة والحدادين. راجع: ج. ديفيس وإ. هريك "المرابطون" مقال ضمن تاريخ إفريقيا العام، منشورات اليونسكو، 1992، ج3، ص391.

114- البكري، المغرب ص168 و 172.

115- البكري م. الفصل الخاص بالطرق إلى الصحراء والسودان، "ذكر تكرور".

116- ابن خلدون، العبر... (طبعة دار الفكر، بيروت، دت) ج6 ص200-201.

117- راجع : رسائل ابن حزم (طبعة دار المعارف، القاهرة).

118- العمري (ابن فضل الله) مسالك الألبصار (الجزء الخاص بأفريقية الشمالية والصحراء والسودان) (تحقيق م. أبوضيف. المغرب، 19) ص71 وما يليها.

119- الرأي للباحث عمر النكار - راجع: Nagar (Umar) Tkrur ; The History of a Name. In Jah x 3 (1969) pp 365-74. Al والترجمة والاقتباس عن :

- ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17 - 18 م) [د.د.ع، الرباط 1992] ص25.

وبالنسبة للمؤلفين الشناقطة فإن عبارة التكرور تعني عندهم -حسب رأينا- بلاد شنقيط نفسها، وترد هذه المطابقة بصورة مجملة، في الغالب، ضمن الحوليات الإخبارية التي كانت تدوّن في مدن الساحل الصحراوي من بلاد شنقيط. ويعود ذلك من بين أمور أخرى عديدة، إلى أن مؤلفي هذه الحوليات والنبد التاريخية المنشورة غالباً ما ينتمون إلى جزء من المجال الشنقيطي متأثر دائماً بهموم العلاقة مع الحواضر السودانية التي أصبح اسم التكرور، كما قدّمنا لصيقاً بها¹²⁰.

أما أوّل من توسّع في استخدام اسم بلاد التكرور أو التكرور وحده علماً على المجال الشنقيطي، على حدّ علمنا، فهو محمد ابن أبي بكر الصديق البرتلي (ت عام 1215هـ) في عنوان كتابه: "فتح الشكور في تراجم أعيان علماء التكرور" وفيه حدّد صقع التكرور بأنه "أقليم واسع ممتد شرقاً إلى ادغاغ ومغرباً إلى بحر بني الزناقية وجنوباً إلى بيط وشمالاً إلى أدرار"¹²¹.

ومهما اختلف الباحثون بشأن موقع بيط هذه¹²²، فإن المعالم الأخرى تشير إجمالاً إلى مناطق معروفة، بعضها [ك"ادغاغ" = أدرار الإفوغاس] يمثل حدوداً ترابية قصوى لانتشار المجموعات الصنهاجية والعربية التي أصبحت تعرف مشرقياً بالشناقطة ومحلياً بالبيضان.

ويعتبر الباحث ولد عبد الله أن البرتلي إنما استخدم التكرور للدلالة على الغرب الإفريقي الإسلامي عموماً¹²³، حيث ترجم للفقهاء السودانيين، إلا أنه اقتصر في الغالب على الترجمة للشناقطة. ويردّ ولد عبد الله هذا الخلط إلى أن البرتلي كغيره من فقهاء المنطقة، لم يكن مفهوماً الوطنية واضحاً لديه بما في الكفاية.

ومهما توافر لهذا الرأي من الأدلة، فإن هذا الباحث لم يورد تعليلاً واضحاً للخصوصية المجالية لبعض المعالم التي اعتبرنا أن صاحب فتح الشكور قد يكون حدّد بها حدود بلاد شنقيط. مثل معلم ادغاغ المذكور، إذ المعلوم عرفياً أن التكرور يتجاوز في حدوده هذه المنطقة وغيرها من مثيلاتها التي ذكرها صاحب الفتح.

120- مثل: حوليات ولاتة، تيشيت، تمبكتو ومثل: تاريخ ابن انبوجه "وقائع الدهور" وتاريخ البرتلي.

121- راجع تحقيق الدكتور محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني [ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، [1981 ص 26. وفي حاضرة أخرى من حواضر الشرق الموريتاني الكبير هي مدينة تيشيت، عنون المؤرخ الكبير ابن انبوجه الجزء الثاني من كتابه: "فتح الدهور" بما نصه: تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب.

122- أرجع التلخيص الشافعي لمجمل هذه الآراء مع: ولد عبد الله الحركة الفكرية م.س.ص 27.

123- الحركة الفكرية م.س. ص. 28-29.

فنعتبر البرتلي بتحديد ذلك إنما يوضح مجال بلاد شنقيط ويسميه باسم آخر كان مستخدماً في مدينة ولاته ومدن "الساحل السوداني" الشنقيطي، أسماء أسر العلم الصنهاجية المسوفية واللمتونية والتوارقية التي استقرت في المدن الكبرى مثل تنبكتو وجنى، وغيرها من المناطق كإمارة "أكدر" التي أسسها الصنهاجيون وكانت لهم فيها منذ القرن 10هـ (16م) القيادتان الزمنية والعلمية.¹²⁴

وإذا كان منهج البرتلي قد اضطرب في تحديد مناطق شنقيطية معينة نسيها ابتداءً، فإن هذا لا يقدح في الطرح الذي تبنيه أنفاً. بحكم الأثر الذي لا بد أن تعكسه ذاكرة المؤلف، عوامل الانفصال وبعد الشقة التي كانت أجزاء بلاد شنقيط تعرفها لعهد. ورغم ذلك بقي المؤلف ملماً إجمالاً بالحدود النظرية للقطر الذي ينتمي إليه، وهي مع كل ذلك تبقى حدوداً مبهمة بشكل كبير، قياساً بالمعايير المعاصرة، لرسم الحدود السياسية للبلاد.

ونحن مع ذلك لا نستبعد استخدام مصطلح التكرور، من قبل الكتاب المحليين، علماً على البلاد السودانية والصحراوية عموماً تجاوباً مع الصياغة المشرقية للمصطلح. هذا بالرغم من أننا واجدون استخداماً للتكرور للدلالة على بلاد السودان الغربي دون أن يشمل بلاد شنقيط أو أحوازها. نجد ذلك في كتاب إنفاق الميسور لمحمد بلو ضمن الفصل الذي عقده لـ "التكرور وحدوده". والأمثلة كثيرة في هذا الباب وأشهر من أن نقف عندها.

وقد ظلّ المشاركة يطلقون تسمية ركب الحاج التكروري على تجمع قوافل الحاج التي كانت تسير تحت إشراف الممالك الإسلامية السودانية، ولاسيماً مالي والسونغاي، لكن التسيير المباشر كان بيد الأهلين من شناقطة وسودانيين، كما يلتحق بها حجاجهم القادمون من كل فج عميق.

وقد ساهمت العلاقات التجارية بين السودان ومصر المملوكية في توطيد الروابط السياسية والثقافية، مما ساهم في ازدهار حركة ركاب الحاج نحو المشرق.

ونعتقد أن ركاب الحج الملكية في بدايات إسلام ملوك المنطقة¹²⁵ أو تلك التي قيم بها في عهد الأسلمة المعقدة،¹²⁶ قد شكّلت أساس التسيير الدوري لركاب الحج التكرورية والتي كان

124- راجع حسن الوزان (عرف بليون الأفريقي)، وصف أفريقيا ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي 1983 (ج2 مجلد 1) ج2 ص. 171-172.

125 - تشير الروايات الشفاهية السودانية إلى "لهينول كلابي" بوصفه أول حجاج ملوك "ملي" (مالي) راجع: جبريل ت. نياني "مالي والتوسع" م.س ص140.

126 - تذكر المصادر العربية المختلفة (ابن خلدون، البكري...) حج الملك برمندانا (أو سرمندانا) أويقترح الباحثون المعاصرون أن يكون هو نفسه المانشا باريمون، إذا أخذ بقائمة ملوك الماندانغ التي وضعت حديثاً.

من أشهرها رحلة حج المانسا موسى (1307-1332) والتي وضعت بحق الأسس الضرورية لاستمرار صلة أهل التكرور بمصر والمشرق العربي عموماً.¹²⁷

ولن يستخدم المحور الشرقي بكثافة إلا مع الرحلات الشنقيطية في نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين ومع الضغط الاستعماري على موريتانيا والمستعمرات الإفريقية القريبة منها مثل رحلة رجال المدرسة الغطفية البصادية: الشيخ زيني والركب الغطفاني عام 1910-1911. وكان لهم دور حاسم في الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي لاسيما في معركة سواني بن يادم الليبية الشهيرة.

ورموز أخرى من البصადيين مثل الشيخ محمد عبد الله بن آده البصادي والشيخ محمد المجتبى بن خطري البصادي وكان أحد قادة الجهاد مع الشيخ ماي العننين وخلفائه. وكان أحفادهم وبنو عموماتهم في مقدمة المجاورين في الحرمين والمدرسين بهما ولاسيما العلامة محمد عبد الله بن غالي البصادي، وذلك خلال أوائل الدولة السعودية الحديثة.

هذا فضلاً عن علماء شناقطة آخرين تركوا أثراً ثقافياً ودينياً ملموساً في السودان الشرقي والمناطق الإفريقية الواقعة على طريقه.

ولكن منذ عام 1591م، ومع نهاية دولة الصانغاي التي كانت تبسط سلطانها على ولآته، أصبحت هذه المدينة، التي كانت قاعدة للجنوب الشرقي لموريتانيا، تعاني من فراغ سياسي سدّته النخب الأهلية "القضاة والأئمة ومسيرو القوافل".¹²⁸ ويرى محمد الشنّافي¹²⁹ أن ولآته أصبحت منذ القرن 11هـ (17م) تجذب حجاج المناطق المحيطة بها وبعض المجموعات السودانية القادمة من الحدود السودانية.¹³⁰

ومنذ هذه الفترة أصبحت ركاب الحاج الشنقيطية مستقلة عن ركب الحاج التكروري الذي انفرط عقده بانهياء السلطة التي كانت تشرف عليه. وأصبحت نخبة المدن الشنقيطية تتجه في مرحلة أولى إلى تسيير رفاق الحاج المنطلقة منها بشكل منفرد، ثم يتحوّل الأمر إلى تنسيق في بعض الأحيان. وستتركز تقاليد ركاب الحاج، ومتعلقاتها من رحلات علمية

127 - راجع جبريل ص 158-160.

128 - م.س 677.

129 - عن النخب والتحولات المؤسسة التي أفرزتها، راجع التحليل الدقيق الذي قدمه أستاذنا دود ابن عبد الله في أطروحته القيمة الحركة الفكرية في بلاد شنقيط ص 6.

130 - هذا الرأي، في أصله، لأستاذنا محمد بن مولود الشنّافي، مقابلة معه (بعين السلامة) بتاريخ 1994/9/30.

خارجية، في مدن الشرق الموريتاني [ولاته، تيشيت، النعمة، تجكجة ..] والشمال الموريتاني [شنقيط، وادان، أوجفت، أطار ..]. بينما كان حظّ المناطق الغربية [الكبلّة، تيرس] ضئيلاً من الحج ومتعلقاته. وهو ما يرجع إلى أن المجال الموريتاني قد انقسم بشكل مبكر إلى منطقتين متميزتين :

* الساحل الصحراوي : وهي منطقة المراكز الثقافية والدينية والحضرية، وتشمل شرق البلاد [بلاد أزواد، بلاد الحوض، بلاد الرقيبة، بلاد تقانت] وشمالها [بلاد أدرار] حيث ترسّخت تقاليد "الإجماع" [بدالته في الاجتماع السياسي] بفعل قوة مؤسسات المجتمع الأهلي واستقلاليتها عن هيمنة حملة السلاح من "حسان".

* بوادي الأطلسي : وهي منطقة الأطراف وتشمل أقصى الجنوب الغربي الموريتاني الحالي [الكبلّة (القبلة) : ولاية الترازة الحالية]، وقد كان حظّها من "الإجماع" ومقتضياته ضئيلاً بفعل نتائج حرب "شريبه" التي خفضت بعض زوايا الكبلّة إلى المرتبة الثانية بعد المحاربين من قبائل الترازة العربية، وجردتهم من الاستقلال السياسي وربطتهم بمحطات تجارة الصمغ على نهر السنغال بعيداً عن رحلات الحج والتواصل العلمي مع بلاد الحجاز ومصر التي توثقت بها صلات علماء وفقهاء الشرق الكبير.

ركاب الحاج الشنقيطية

ابتداءً من القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجرة (17-18م) نشأ بالنسبة للحج من بلاد شنقيط ، نوع من التخصص الجوي في تسيير قوافل الحجّاج. فأصبحت ولّاة تعرف تكوين ركب حاج ضخم ينطلق منها في وقت معلوم، بعد أن تصل إليها فئات الحجّاج القادمين من الجنوب الشرقي الموريتاني الحالي والمناطق السودانية المتاخمة له ، فضلاً عن حاج مدينة تيشيت [في الشرق الموريتاني] التي كان ركبها يلتحق بالركب الولاتي مباشرة أو يندمج معه في ركب الحاج التواتي حين يلتقيان في اتوات التي كانت هي الأخرى تعرف أيضاً مرور الركب المغربي منها.¹³¹ أما مدينة شنقيط فقد أصبحت منذ هذه الفترة تقوم بدور جهوي آخر سيأتي عرضه تفصيلاً.

* ركب الحاج الولاتي

ينسب هذا الركب الحجي إلى مدينة ولّاة الواقعة على حافة الهضبة الكبرى في أقصى الشرق الموريتاني. وقد ازدهرت في القرن الهجري الثاني (8م)، ثم ازدهرت على يد

131 - م.س.، ص 48.

التشكيلات الصنهاجية - العربية في القرون الموالية كمحطة تجارية نشطة على الطريق التجاري الغربي، وحاضرة علمية لا مثيل لها في غرب الصحراء.

وقد بدأت تقاليد الحجّ تترسخ في ولّاتة على عهد مملكة مالي، التي كان لها نفوذ على المجال الشرقي الموريتاني الحالي، ولكنه ظل نفوذاً اسمياً بفعل وجود القبائل المسوفية العvisية الانقياد، ثم لأن الحكام المالين قد صاروا، في أواخر عهدهم على الأقل، يولون على السكان حكّاماً من بني جلدتهم.

وفي العهد المالي كان الحجّ الرسمي والأهلي يمرّ من خلال حاضرة ولّاتة لأسباب نجهلها. ولعل الأمر يعود إلى طابعها الديني - العلمي، بحكم التقليد السائد آنذاك والقاضي بالتمييز بين العواصم الدينية-الثقافية[مثل:ولّاتة، تنبكتو] والعواصم السياسية-العسكرية [مثل:كوكو وكاوة].

وفي عهد مملكة صونغاي، ولاسيما في عهد الأساكي [1443-1591م]، ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية على نطاق واسع، وازداد التحام المجموعات العربية والسودانية في التواصل الفكري مع المشرق العربي.

ومع استقلال الركاب الحجية الشنقيطية عن صنوها السودانية، مع بقاء التنسيق عبر مسالك الحاج، استقل الركب الحجّي الولّاتي وصارت له قيادته وموارده الخاصة.

لكن الإشارات إلى هذا الركب لن تكون واضحة إلا مع بداية القرن الثاني عشر الهجري حيث أصبح لولّاتة ركب حاج معروف منسوب إليها تعود لأعيانها قيادته على الأقل داخل المجال الشنقيطي.

ويستشف ذلك بوضوح مما يصرّح به الفقيه الولّاتي محمد ابن أبي بكر الصديق البرتلي (1140-1219هـ) في مؤلفه فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور حين ترجم للحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي الملقب "بالتواتي"، أصيل "ولّاتة"، فقال عنه: "حج مرات إلى بيت الله الحرام، وهو شيخ الركب من أرضنا حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة"¹³²، واستطرد دوره في تنظيم الركب الولّاتي وحمايته من خطر لصوص القوافل، وكيف أهّلته لذلك شخصيته الحازمة وما يضطلع به من مهام في هذه الحاضرة وفي أحوازها من منطقة الشرق الكبير.

132 - فتح الشكور م س ص 48.

3-1 أمثلة من حاج ولاته

خلال القرن الثاني عشر سيعزز دور الركب الولاتي التواتي بازدياد سفر أعيان علماء المنطقة. وتذكر المصادر الشنقيطية عدّة ولاتيين من الذين حجّوا في هذه الفترة، مثل الحاج البشير بن الحاج أبي بكر البرتلي "الذي حجّ عام أربعة ومائتين وألف وزار، [و] له رحلة يذكر فيها مراحل طريق الحج من بلاد "توات" إلى الحرمين... ولقي العلماء والصالحين، ولقي الشريف المرتضى [الزبيدي] بمصر وأجازته..."¹³³.

ومن العلماء البارزين أصحاب الرحلات الحجة العديدة الحاج أبوبكر بن الحاج عيسى الغلاوي الذي "كان من صدور العلماء وفخراً من مفاخر العلماء"¹³⁴ على حدّ تعبير صاحب "فتح الشكور" الذي ذكر أن المعني "حج في الحادي والعشرين بعد المائة والألف، وصحب في سفره هذا الحاج سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي (....) وكان هو يصلي بالشيخ في رحلته معه للحج".¹³⁵ والملاحظة الأولى على هذه الأمثلة أنها تتعلق بشخصيات تنتمي قبائلها إلى فئة الزوايا المختصة بالخطط الدينية والثقافية في بلاد شنقيط.

3-2 التواتيون في مصر

أما المصادر المصرية فأهم إشاراتنا إلى التواتيين (وهم شناقطة فيمن ترجم منهم في نصوص الزبيدي)، ما جاء في "معجم المشايخ". فقد ذكر هذا اللغوي المصري الذائع الصيت عدة رحلات للحجاج التواتيين زاروه في القاهرة وربطوا معه صلات طرقية وعلمية هامة.

فمن هؤلاء إبراهيم بن ادريس بن عبد القادر التواتي ورد إلى مصر مرات فلقني الزبيدي في دار الكتب [لا يقصد دار الكتب الحالية] سنة 1186 هـ، ثم زاره بعد ذلك سنة 1194 هـ.¹³⁶ ثم عمر بن المصطفى بن محمد بن عمر الكنتاوي الذي ورد على مصر حاجاً سنة 1198.¹³⁷ وقبل ذلك سنة 1195 هـ لقي الزبيدي المسمّى أحمد بن عمر الكنتاوي الذي ورد عليه منصرفاً من الحج.¹³⁸

133 - فتح الشكور، م.س، ص 83.

134 - م.س ص 75.

135 - م.س ص 76.

136 - معجم المشايخ ج 1، ص 24-25.

137 - م.س ص 122.

138 - م.س ص 15.

وهؤلاء وغيرهم يذكر الزبيدي وصولهم إليه إجمالاً دون التذكير بالركب الذي وصلوا معه، نظراً لأنه سبق أن لفت الانتباه إلى ذلك في ترجمته لأبي نعام. لكنه يصرح بوصول عبد الله بن محمد الكتاوي الذي ينتمي إلى نفس قبيلة المعنيين إلى القاهرة "حاجاً في سنة 1194هـ مع الركب التواتي".¹³⁹

إن هذه النماذج القليلة تمثل غيضاً من فيض الحاج الشناقطة الذين كانوا يرحلون من ولاتة وأحوارها إلى الحجاز عبر أتوات وتصبحهم فئات عريضة من أحوار هذه الواحة الصحراوية التي شهدت عصر ازدهارها كمرّ لركاب الحاج في القرن 15م وازداد ذلك في القرون اللاحقة.

* ركب الحاج الشنقيطي

- (أ) بلاد شنقيط: شنقيط في الأصل مدينة من مدن "أدرار" إلى الشمال من وسط موريتانيا الحالية¹⁴⁰. ثم سمي بها القطر كله "فصار من باب تسمية الشيء باسم بعضه".

وقد تأسست مدينة شنقيط سنة 660/1261م. على يد ثلاث قبائل [الشماسدة وإدو علي والأغلل]، قرب مدينة أخرى كانت تسمى "أبير" بنيت حسب التقاليد المدونة لسكان المنطقة، سنة 160هـ 776م. ثم اندثرت في ظروف غامضة فهاجر أهلها إلى موضع قريب منها وفيه أقاموا المدينة الجديدة.¹⁴¹ وتختلف الروايات في تفسير اسم المدينة ونوع سكانها الأول.¹⁴² وحول أقدمية المدينة اقترح الباحثون الغربيون عدّة تواريخ تتراوح بين القرن الثاني الهجري (8م)، ربما قياساً على أن هذه الفترة قد عرفت انتعاشاً للمحور الغربي في التجارة للقوافل المارة بها أو بالقرب منها. أو لتصل إلى القرن التاسع الهجري (15م) كأقل

139 - م.س ص 51-52.

140 - راجع الخارطة رقم (1).

141 - الشنقيطي (أحمد ابن الأمين ت 1910)، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط - [انراكشوط، مكتبتا المنير والخانجي]، 1989 ص 422.

142 - يقترح عبد الله ابن الحاج إبراهيم العلوي (ت 1814م) تفسير اسم شنقيط بمعنى "عيون الخيل" وهو اسمها في لغة السوننكة (السودانيين) وبذلك يجعلهم ضمنياً مؤسسيها. وهو ما نعتقد أنه الصواب إذ أن هوداس في تحقيقه لتاريخ السودان يشير في الصفحة (22) عند ذكر المؤلف لاسم المدينة بصيغة شنقيط، إلى أن بارت في نسخته من الكتاب نفسه وجد اسمها في صيغة "شنقيط" وهو نطق "سوننكي" على الأرجح. راجع: الوسيط م.س ص 422. وفي القرن الثاني عشر الهجري ذكرت مدينة شنقيط في معجم تاج العروس للزبيدي، كما ذكرت فيه أيضاً مدينة ولاتة. [ولاتة كسحابة، مدينة بأقصى المغرب- موريتانيا الحالية].

التقديرات المقترحة: وقد جمع الباحث الإنجليزي (هـ. ث. نوريس) آراء أولئك الباحثين وخرج بخلاصة رجّح فيها أقدمية المدينة.¹⁴³

وبالرغم من ذلك فإننا لا نعرف حتى الآن، ذكرًا لمدينة شنقيط في أي مصدر مكتوب قبل القرن التاسع هجري (15م).¹⁴⁴

لكن الذي لا شك فيه هو أن القرن الثاني عشر الهجري (18م) كان عهد الازدهار الحقيقي لمدينة شنقيط بوصفها محطة للقوافل التجارية، ومنطلقا لركاب الحج الصحراوية، وهو ما رسّخ مكانتها محليا فمشرقيا. وأول شرح لتلك الظرفية، والتي تمّ في خضمّها إطلاق اسم المدينة على البلاد كلها، نجد في رسالة تأليف الفقيه عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي وعنوانها: صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قل والمكتوبة سنة 1205هـ - 1790م وفيها يقول: "...وكان الركب يمشی من شنقيط إلى مكة كل عام ويحجّ معهم من أراد الحجّ من سائر الأفاق، حتى أن أهل هذه البلاد أعني من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجطة...."¹⁴⁵

لكن ابن الحاج إبراهيم لا يوضح متى تم انتشار اسم بلاد شنقيط مشرقيا، تبعا لازدياد وصول ركاب الحاج المنطلقة من مدينة شنقيط، ولا متى تمّ استقلال ركاب حاج الشناقطة عن ركاب الحاج السودانية التي كانوا يلتحقون بها في فترات سابقة!

إننا نفترض أن ذلك الاستقلال قد تمّ على عهد الفقيه الشنقيطي أحمد بن أحمد بن الحاج العلوي الملقب "أكّد الحاج" (ت 1086هـ / 1675م) والذي كان جدّه أول من حجّ من أهل مدينة شنقيط حسب الروايات المحلية.¹⁴⁶ ويفهم من سياق هذه الرواية أن المعني قد رحل للحجّ

143 - نوريس "تاريخ مدينة شنقيط" حسب روايات قبيلة إدوعل

- NORRIS (H.T) The History of Chingit According to the Idw Aly Tradition in. B. LFAN. DAKAR. T24.se. B No 3-4. (1962).p. - 449.

144 - ذكرها عبد الرحمن السعدي (قبل سنة 1433) يراجع له: تاريخ السودان [ترجمة وتحقيق هوداس وبينوه، طباريس] 1981 ص 22 (من النص العربي). وأشار إليها الرحالة البرتغاليون في القرن 15م. وأورد المتصوّف المصري عبد الوهاب الشعراني (ت 973هـ) في كتابه المعن [ط القاهرة، عالم الفكر، د، ت] ص 174 اسم بلاد شنقيط مصحفا (بلاد شنكوت) وإذا صح أنها المعنية فيكون هذا أول ذكر لبلاد شنقيط في مصدر عربي.

145 - المؤلف فقيه وأصولي شنقيطي ضليع (ت 1233هـ/ 1814م) وقد رحل حاجاً في أواخر الستينات ثم عاد سنة 1776م بعد أن نهل من معين العلوم في حواضر الحجاز ومصر والمغرب حيث استقر في فاس ومنها نقل إلى بلاده السند العلمي الفاسي. ورسائله المذكورة ورقّات عن أهم قبيلتين عمرتا مدينة شنقيط وقد نشر صورة منها نوريس في دراسته الآتية.

146 - سيدي بن الزين العلوي "كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب" (مخطوط. نسخة سنة 1336هـ).

منفرداً عبر طريق لم يكن مألوفاً عند الحجاج الشناقطة، ونعتقد أنه سيكون بلا شك، طريق ركب الحاج المغربي من خلال سجل ماسية، لسهولة الاتصال بهذا الركب الرسمي ولغياب ركب حجي آخر في بلاد السودان الغربي بعد تفكك النظم السياسية هناك .

وسواء كان الأمر كذلك أم لا، فإن المشاركة كانوا، بلا شك هم أول من أطلق تسمية الشناقطة على القادمين من مدينة شنقيط. ويرجع السبب في ذلك، حسب رأينا (قياساً على مسألة انتشار اسم التكرور التي ستأتي تفصيلاً) إلى أن أول حجاج موريتانيا الأمازيغ الذين وصلوا إلى المشرق بأعداد تكفي لتمييزهم كمجموعة مستقلة، قد يكونون وصلوا من مدينة شنقيط. ربما لأنها كانت أول الحواضر الصحراوية استقلالا عن الممالك السودانية، ثم توسع المشاركة في إطلاق اسم الشناقطة (ومن ثم بلاد شنقيط) على كل من يأتي من تلك الوجهة.¹⁴⁷ وكان من اللافت للمشاركة ما عليه هؤلاء الحجاج من انسجام في اللغة وتخلُّ عن واجب اللثام الصنهاجي، عكساً لحاج التكرور الذي كان ركباً ضخماً يجمع نزاعاً من أقوام مختلفي المشارب والميول والسحنة واللغة والزي، باختلافهم في الأصول من عربية شنقيطية [البليضان الموريتانيون] وتوارقية [صنهاجة أهل اللثام] وسودانية [الونغارة والفلان والهوسا] وغيرهم من أهل الدواخل الإفريقية .

والمهم في الأمر أنه منذ تلك الفترة أصبح الشناقطة متقبلين لهذه التسمية الجديدة أو كان ذلك من باب القبول بالأمر الواقع. وهو ما يوضحه بجلاء قول فقيه شنقيطي متأخر هو الشيخ محمد (المامي علما) بن البخاري الباركلي اليعقوبي الحساني المعقلي (ت 1292) عندما قال "إن علم أهل المنكب البرزخي [بلاد شنقيط] عند أهل الأمصار الشناقطة".¹⁴⁸ أي أن تسمية الشناقطة قد أصبحت علماً على سكان البلاد عند سكان الحواضر الإسلامية، وخصوصاً منها تلك الواقعة في طريق ركب الحاج الشنقيطي.

ومنذ تلك المرحلة لا يشير أي مصدر عربي، على حد علمنا إلى اسم آخر للمنطقة وسكانها، منذ ترسخ تلك التسمية وحلولها محل التسميات المختلفة التي كانت البلاد تعرف بها خارج حدودها. ونعتقد أن القرن الحادي عشر الهجري (17م) كان هو عهد عملية الترسخ تلك. والدليل على ذلك أن أقدم استخدام مدوّن لذلك المصطلح، حسب العلم، هو ما

147 - ولذلك لم تقم بهذا الدور التعريفي مدينة ولاتة الأقدم تأسيساً وربما كان ذلك راجعاً إلى قربها من المجال الحيوي لسيطرة الممالك السودانية وكذلك لأن الركب الحجي المغربي كان الأقرب إلى سكان هذه الحاضرة بعد انقراض عقد الركاب السودانية .

148 - كتاب البادية (مخطوط) ، وكذلك محمد الأمين الحجاجي في مقدمة تعليقه على القاموس .

يرد في سياق سؤال طرحه عبد الله بن محمد "قاضي شنجيط" على عيسى السكتاني "قاضي مراكش" (ت 1063هـ) وبداية هذا السؤال: إن البلاد الشنجيطية وما حولها إذا كانوا يتلون القرآن يبدلون الضاد حيث جاء في القرآن لأمًا مغلظة¹⁴⁹.

سبق أن ألمحنا إلى ازدهار مدينة شنجيط منذ القرن الثامن عشر، وأشرنا إلى أن البداية الأولى لاستقلال ركب الحاج الشنجيطي القادم من بلاد شنجيط عن مثيله التكروري، ربما حدثت منذ انطلق ركب الحاج من بلاد شنجيط عبر هذه المدينة على عهد الفقيه الشنجيطي أحمد بن أحمد الملقب أكد الحاج (ت 1086هـ) والذي أشرنا إلى أن جدّه كان أول من حجّ من أهل شنجيط.¹⁵⁰ ويضاف إلى ذلك ما يعرف عن أهل هذه المدينة من ولعهم المحموم بالحج، الذي يؤكد ما جاء في صحيحة النقل من أنه "قد تحج الدار من أهل شنجيط كلها لا يبقى فيها أحد من شدة اعتنائهم بالحج...."¹⁵¹ إضافة إلى أنهم كانوا "يحجون من قدروا على إحجاجة".¹⁵² ومن ذلك ما اشتهر عن الحاج محمد أحمد وهو شيخ من أعيان المدينة.. أنه أنفق على أربعين نفساً من غير عياله وحملها لله تعالى...¹⁵³.

وعندما كان الركب الشنجيطي يصل إلى القاهرة فإنه كان ينتظر، في غالب الأحوال، خروج الركب المصري الذي تنضم إليه الركاب الأخرى مختربة صحراء سيناء، سالكة دروباً معينة قد تتعرض فيها لمخاطر جمة.

وخلال القرن 12هـ (18م)، فترة كتابة الوصية، تسعفنا النصوص الفرنسية بمعلومات مجملة عن هذه الدرب وحالتها كما عُرِفَت في عهد الولاة الغلاوي.

وبعد عبور سيناء تنتهي مشاكل الطريق بالنسبة للحجاج، وتبقى هموم الإقامة في الديار المقدسة وظروف أداء فرض الحج فيها. وبغض النظر عن السياق الاجتماعي والسياسي لتلك الهموم، فإن مجمل شأن الإقامة والحج يتلخص في ثلاثة مستويات :

1 - الوصول عبر الموانئ: ويعاني الزائر خلاله من الرّحام وخشونة السلط التركية وكذا طول إجراءات الدخول .

149 - التتواجبي، عبد الله بن أبي بكر ت 1145هـ، رسالة في تبیین مخرج الجیم [المكتبة الوطنية في باريس (المخطوط رقم 5481)] نسخة الأستاذ دود ولد عبد الله .

150 - صحيحة النقل.

151 - مخطوط مصور ضمن دراسة نوريس الأنفة الذكر.

152 - م.س.

153 - م.س.

2 - الإقامة: الأغلب أنها كانت تتمّ من قبل الأسر الحجازية الكريمة مثل : آل مجموع وآل المشاط، إضافة إلى المتنفّذين في بينزُيعرُ وجدة. وأحياناً يلقي الحجاج الشناقطة المعاملة السيئة ممن ليست لهم بهم سابق معرفة.

3 - التنقل: ويتم عبر الإبل التي يكتريها الأعراب، أو من خلال السفن الشراعية التي تبحر بمحاذاة الساحل نحو ينبع أو جدة.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الظروف الإيجابية والسلبية لم تكن حاسمة في حركة الحاج الشنقيطي نحو الحجاز، بل إن الفتاوى الفقهية بشأن الحجّ كانت أكثر حسماً. ومن أهمها في سياقنا آراء فقهاء الشمال الإفريقي الذين تشكل آراؤهم مرجعاً للفقهاء الشناقطة بشأن مسألة أداء الحج.

من ذلك أنه على عهد الفاطميين كانت مصر المعبر شبه الإجمالي لحجاج شمال أفريقيا مما جعل المعز بن باديس الصنهاجي، عندما أعلن استقلال إفريقية عن الحكم الفاطمي في مصر، تردد في ذلك كثيراً، مؤكداً خوفه على قافلة الحاج الإفريقي التي كانت تمرّ بالفاطميين في مصر، فخشي عليها من عواقب صراعه مع حكام مصر هؤلاء.

وإثر غزوة بني هلال أصبح الحج عن طريق البرّ مستحيلاً كما أثار السفر للحج عن طريق البحر على سفن مسيحية عدة مشاكل شرعية وعملية.

وهكذا توافر ميل عند فقهاء الفترة كلها إلى إسقاط فريضة الحج عن المغاربة أجمعين "بسبب تعذّر طريق البرّ" كما يقولون، إلى درجة أن منهم من كان يحبذ استنجار سفن النصارى رغم كراهته عند جمهور المالكية، ويفضّل هذا الحلّ على السفر عن طريق البرّ "تجنباً للإلقاء بالنفس إلى التهلكة" كما يقولون أيضاً، لذلك "لم يؤدّ أي أمير صنهاجي مناسك الحج (....) لأسباب ثقافية وإدارية بل وحتى سياسية، كما أن آخر الفقهاء الكبار في العهد الصنهاجي أمثال السيوري واللخمي وابن صائغ (...) لم يسافروا إلى المشرق....". أما في بلاد شنقيط فإن أولى رحلات الحج التي انطلقت منها وأشهرها، منذ القرن الخامس الهجري هي رحلة يحيى بن إبراهيم الكدالي الصنهاجي، ومقفلة منها لقي الفقيه القيرواني أبو عمران الفاسي، قبل 430هـ لأن هذا هو تاريخ وفاة هذا الفقيه ولأن المرور، بل الإقامة، بالقيروان لم تعد مأمونة بعد سنة 444هـ لاشتداد هجمات الأعراب عليها. ولم تخرج آراء الفقهاء الشناقطة على تلك التي صاغها أسلافهم بشمال إفريقية. ولعلّ ذلك هو ما يفسر قلّة نوازل الحج في المجاميع الإفتائية الشنقيطية.

نتائج التواصل الفكري

نتجت عن عملية التواصل بين المدن القافلية الموريتانية والبلاد المشرقية مثلاً، نتائج هامة علمياً وحضارياً حيث تواسجت الأرحام العلمية بين نخبة العلماء والأدباء في كلا المجالين وتمهّدت سبل التعارف عبر ركاب الحاج الدورية سنوياً. وبغض النظر عن مئات الأعلام من المؤلفين والمدرّسين والأدباء الولّاتيين والتيشيتيين والشنقيطيين والودانيين فإنه تكفي نظرة مجملّة على الأسانيد العلمية والشخصيات التي انتقلت عبرها أسانيد علماء المشرق والمغرب إلى المدن القافلية.

كانت بدايات التواصل بين مدن القوافل والمشرق ضعيفة مع القرن التاسع ثم تطوّرت بعد ذلك وترسّخت تقاليد الدرس والتأليف المحلية مع رحلات الفقهاء إلى المشرق والمغرب ولاسيماً إلى مصر والحجاز.

ومع ترسّخ مكانة المتون المشرقية في الدرس العلمي الشنقيطي (في تنبكتو وولاته بشكل خاص)، بدأ الفقهاء المحليون يحوزون اكتفاءً معرفياً على مستوى استيعاب تلك المتون. ويظهر ذلك جلياً في جهودهم من أجل توسيع وإعادة فهم المتون المصرية سواء بشرحها أو بوضع الطرر والحواشي عليها، أو بعقد منشورها بالنظم. وتمّ في تلك العملية استيعاب أهمّ متنين في حقل المدونة المذهبية المالكية هما مدونة مالك بن أنس ومختصر خليل. فقد وضع عليهما من الشروح والطرر والحواشي ما يبرز المستوى العالي الذي تمّ به استيعابهما داخل حقل الثقافة الشنقيطية آنئذ.¹⁵⁴

فأحمد باب التمبكتي (ت 1036 هـ) له عدة شروح وتعليقات على مختصر خليل في الزكاة إلى أثناء النكاح في سفرين، وسمّاه المقصد الكفيل في تحرير مهمات خليل، حاشية عليه سماها : من الربّ الجليل في تحرير مهمات خليل في سفرين. وله عدّة مراجعات مختصرة على قضايا محدّدة من المختصر، مثل تثنية الواقف على تحرير "وخصصت نية الحالف" في كراس. وإفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع، وأنفس الأغلاق في فتح الاستغلاق من كلام خليل في درك الصداق.

154 - يقول أحد الفقهاء الشناقطة:

علامة الجهل بهذا الجيل ترك الرسالة إلى خليل

أي أن اعتماد المعنيين كان على الرسالة لابن أبي زيد قبل أن تكون عنايتهم مقصورة على "مختصر خليل"!

ولأحمد بن أحمد بن عمر (ت 991 هـ) والد أحمد بابا قطعاً على مواضع من خليل.¹⁵⁵
ولأحمد بن سعيد (ت 976 هـ) حاشية لطيفة على مختصر خليل يقول عنها أحمد بابا في نيله،
إن المعنى اعتمد فيها على النقل من البيان والتحصيل¹⁵⁶ أي أن شرحه كان مؤصلاً تأصيلاً
فقهاً كافياً من وجهة النظر المالكية على الأقل.

ومن أقصى التخوم السودانية من بلاد شنقيط، نذكر كذلك الفقيه الصنهاجي النجيب بن
محمد شمس الدين الكناوي الأنصمني وقد شرح مختصر خليل شرحين : "كبير في أربعة
أسفار وصغير في سفيرين".¹⁵⁷

ومن قرية "تازخت" (قرب مدينة ولآة) محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي (اشتهر
بأيد أحمد) (ت 936 هـ) وله تقايد وطرر على مختصر خليل.¹⁵⁸

الطابع العام لهذا الاستيعاب

نلاحظ أن عملية استيعاب " وإعادة إنتاج " المتن الخليلى في هذه الأمثلة، كانت تنحصر
في نتائجها البليوغرافية على مستوى الشروح والطرر والحواشي والتلخيص والمراجعة...
مما يمكن وصفه ابتداء بأنه يمثل بوضوح مستوى ما من القراءة الاستنساخية، التي لا
تضيف، في نهاية المطاف ، جديداً إلى النص "المقروء".

كما تتم كتابة هذه المجاميع عن نزعة لحصر وتنسيق المعارف الفقهية، مما يدل على
ضعف الابتكار، ربما بفعل استقرار نظرة عند فقهاء المنطقة، مؤداها أن الطروحات الفقهية
المستوعبة قولاً فصلاً يجب النسيج على منواله أو في أحسن الأحوال إعادة شرحه وتبيين
بعض غوامضه تبعاً للتبدلات التي تمس، بين الحين والآخر، نظم تعليم المعارف الفقهية
وآليات تقنيها، ولا تطال بالضرورة السياق الفكري والاجتماعي للنصوص المدروسة حسب
درجة النصانية والحرفية لدى هذا الفقيه أو ذاك!

ولعل أكثر مظاهر ذلك "الثبات" طرافة، أن الفقهاء المحليين أصبحوا ينقلون إلى مستوى
النقاشات "العلمية" بعض مظاهر وهموم الواقع المصري الذي أنتج "مسائل" الفقه المعروضة
في تلك المتون.¹⁵⁹

155 - فتح الشكور، ص. 35 - 36

156 - نيل الابتهاج، ص. 142.

157 - م.س ص 143 .

158 - م.س ص 6/6.

159 - م.س الترجمة رقم (719).

ورغم ذلك كانت للفقهاء الشناقطة في هذه المرحلة من العلاقة مع المشرق العربي، محاولة لتنزيل أحكام الفقه المالكي على الواقع المعيش، واستدعى ذلك أحياناً، وإن بشكل نسبي، نوعاً من مراعاة الانزياحات الناتجة عن تبدل الواقع وإشكالاته المزمنة. كما أن تلك الشروح قد حفلت بمحاولة متدرّجة، ولكنها عميقة، لتطويع المتون المالكية المشروحة، الأمر الذي جعل تلك الشروح والطرق مراجعة تجديدية قياساً بمستوى المعارف الرائجة آنذاك.

2- الأسانيد المشرقية في حواضر الساحل الصحراوي

ترسّخت هذه العملية مع الفقيه الوداني أحمد بن القاسم المعروف بأيد القاسم (توفي أول القرن 11 الهجري). وعنه انتشر السند المصري التنبكتي إلى حواضر بلاد شنقيط الصحراوية وبذا كان الوداني شيخ أسانيد الفقه الحضرية بلا منازع.

* ودان: انتشر فيها السند المصري - الحجازي، من خلال سند أحمد بن القاسم الوداني نفسه، وذلك لأن ودان هي محل سكنه، وجميع من أخذ الفقه فيها يرجع بسنده إليه.¹⁶⁰

* شنقيط: انتشر تدريس الفقه فيها عن تدريس الفقيه الطالب جدو بن الشيخ المختار العلوي بسند¹⁶¹ يصعد إلى أحمد بن الحاج العلوي الشنجيطي (ت 1086 هـ) وهو أخذ عن أحمد بن القاسم الوداني.¹⁶²

* مدينة ولاتة: عمّ فيها تدريس الفقه عن الفقيه الطالب القصري بن محمد المختار الإدليبي¹⁶³ عن مشايخ يتصلون بسند أحمد بن القاسم الوداني.

* تيشيت: جميع الأسانيد فيها ترجع إلى أحمد بن القاسم الوداني عن طريق يبدأ بمحمد (المعروف بالعالم) بن يدغوري (ت 28 شوال عام 1188 هـ).¹⁶⁴

وفي المناطق الجنوبية الشرقية من بلاد شنقيط (السهوة، وأقله : الحوض الغربي الحالي) انتشر فيها تدريس عن سند الطالب أحمد بن محمد راره التناوجيوي¹⁶⁵ وسنده في الفقه يصعد عبر فقهاء ولأتيين، ليصل إلى أحمد بن القاسم الوداني المذكور. والسمة العامة لانتقال الأسانيد المصرية في هذا الطور من العلاقة الفكرية بين المنطقتين، يبرز أن الرافد

160 - ابن انبوجه. م. س.، ص 103.

161 - م. س.، ص 102.

162 - البرتلي. فتح الشكوك. م. س.، ص 40.

163 - ابن انبوجه، نفس المرجع ص 103.

164 - ابن انبوجه. م. س. ص 101.

165 - م. س. ص 104.

المشرقي بفرعه الأكبر السند المصري والأصغر السند الحجازي، كان منفرداً في الساحة الثقافية الشنقيطية نظراً لصالأة دور الرافد المغربي في المنطقة خلال هذه المرحلة، ولأن الأسانيد المصرية في هذه العلاقة كانت لها قيمة معرفية كافية. لكن ذلك الطور من العلاقة لن يمنع الشناقطة وقد استوعبوا العناصر المصرية والحجازية للروافد المشرقية، من وضع المتن المشرقية على المحك، في وقت أصبح الشناقطة يشعرون باكتفاء معرفي هام مكنهم من أن يجيز بعضهم البعض بأسانيد تظل حلقاتها شنقيطية بحتة ولا تصل إلى طبقة الإسناد المشرقية إلا بعد طبقات من المسندين المحليين في بلاد أدرار والشرق الموريتاني الكبير.

وكان من نتائج هذه العملية التواصلية كمّ ضخم من المؤلفين والمؤلفات أغلبه في مصنفات التراجم لكبار مؤرخي المدن القافلية في موريتانيا، من أمثال :

1- محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، وهو مصنف في تراجم وأخبار العلماء والفقهاء، ضمّنه المؤلف ما يزيد عن مائتي ترجمة.

2. الطالب أبو بكر المحجوبي الولاتي: منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور. وفيه ذكر فوات "الفتح" من العلماء والصلحاء لا سيّما من بلاد الحوض وما جاورها من الشرق الموريتاني الذي كان في تلك العهود يمثل قلب حضارة المجموعة العربية في غرب الصحراء خلال عدة قرون.

وكانت المدارس الموجودة في المدن القافلية مدارس مستقرة ذات تقاليد مدينية راسخة لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في القرويين بالمغرب أو الأزهر بمصر على سبيل المثال لا الحصر. وقد ظلّت هذه المدارس مستمرة إلى أيام الاستعمار الفرنسي إلى جانب المدارس البدوية الشهيرة المسماة المحاضر.

وفي القرن التاسع عشر ستبدأ مدن القوافل والمدارس الممتدة منها إلى البوادي أي المحاضر تقدم للمشرق نخبة من علماء وأدباء البلاد الموريتانية "بلاد شنقيط" ومن أبرزهم محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي الذي مثّل شخصية آخر جيل من علماء وأدباء مدن القوافل وأحوازها.

شخصية ابن التلاميذ ومكانته في المشرق

كان بوجدنا تقصّي أخبار جُلّ أصحاب العلم والأدب من علماء المدن القافلية والمرتبطين بتقاليدها العلمية الذين استقروا في مصر والحجاز. لكن ضياع أخبارهم وأثارهم يجعلنا

نقتصر من بينهم على الأديب اللغوي المتمكن محمد محمود بن التلاميذ التركي (ت 1323هـ/1904م). لأنه مثل في المشرق شخصية "المثقف" الشنقيطي لعهد، وذلك بحافظته الواعية لنوازل الأدب وشوارد اللغة وعويس مشكلات الفقه وأصوله مع حدة طبع زائدة تميز الصحراويين.. إلى كثير من السمات التي أضحت عند المشاركة علماً على الشناقطة منذ الفترة الحديثة وإلى الأمس القريب. وقد وصل ابن التلاميذ إلى المشرق، بعد أن تزلّع من العلوم السائدة في الدائرة الثقافية الشنقيطية. فقد لازم اللغوي المشهور أجود بن أكتوشن العلوي الشنقيطي، وعليه تخرّج، ورحل إلى المشرق، ومربابن الأعمش بتيندوف [جنوب غرب الجزائر]، وتلقّى عليه جملاً من الحديث. هذا بالإضافة إلى زاد علمي جمعه ابن التلاميذ من مطالعاته الواسعة ممّا مكنه من أن "ينفرد في المشرق باللغة والأنساب" على حدّ صاحب الوسيط.

وعن شخصية ابن التلاميذ وتمكّنه المعرفي تحدّث كبار الكتاب والأدباء المصريين بغير قليل من الإعجاب والتقدير.

فمحمد رشيد رضا، وهو تلميذ محمد عبده، يصف الشنقيطي "بالعلامة المحدث الذي انتهت إليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار [المصرية] ولاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب المخضرمين"¹⁶⁶

أما أحمد تيمور باشا فيصف الشنقيطي "بالأستاذ العلامة الحجة إمام اللغويين في مصر".¹⁶⁷ أما عن شخصيته فيقول "إنه كان شديد التمسك بالسنة قولاً للحق ولو على نفسه، مع حدة طبع زائدة، ولهذا لم ينتفع به إلا القليلون، وكان لا يملّ المطالعة ليلاً ولا نهاراً حتى أضنته كثرة الجلوس."¹⁶⁸

ولا يخرج طه حسين عن هذا الإطار، فهو يذكر أنه كان يسمع حديث الطلاب الكبار في الأزهر عن الشيخ الشنقيطي، "وأنهم لم يروا قطّ ضرباً له في حفظ اللغة العربية ورواية الحديث سنداً وامتناً من ظهر قلب".¹⁶⁹ ويأتي أحمد حسن الزيات في مقدّمة من اتصلوا بالشنقيطي ورووا عنه وخبروا أحواله. وهو يصفه "بأنه كان آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن من كل أولئك نصل ولا سند ولا

166 - راجع الخليل النحوي "المنارة والرباط"، [تونس] 1987 ص. 270.

167 - أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث [نشر لجنة المؤلفات التيمورية، القاهرة، ط 1967.

168 - تيمور، أعلام الفكر.

169 - الأيام، ص 154

رواية. وكان شמוש الطبع حادّ البادرة قويّ المعارضة، يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط".¹⁷⁰

وعن صلته بالشنقيطي يقول الزيات أن ابن التلاميذ طبع كتابه الحماسة وكان لا يبيعه "وإنما كان يهديه إلى من يحسن القراءة فيه من طلاب العلم أمامه". فنظّم الزيات قصيدة في مدحه، وتلاها أمامه، فحسن وقعها في نفس الشيخ الشنقيطي وأهدى له النسخة. ثم لزمه الزيات إلى أن توفي سنة 1904م.¹⁷¹

مساهمته الفكرية والأدبية

دخل ابن التلاميذ في خضمّ الساحة الفكرية الرائجة آنذاك في مصر. وشارك بقلمه في إذكاء جذوة النقاشات "العلمية" الحادة التي جرت بينه وبين "مثقفي عصره". وكانت ساحة هذا الصراع هي الصحف الأدبية السيارة الضياء لليازجي ومصباح الشرق للمويلحي، والمؤيد لعلي يوسف.¹⁷²

وعن خصوماته الأدبية والفكرية يقول الزيات أنه، وهو طالب في الأزهر، كان حديثه للمتأدبين "يدور على ما تتناقله الأفواه وتتداوله الصحف من الجدل المضطرب الحادّ بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطي وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر...." ثم أن الشنقيطي "كان لا ينفك يتحدّى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة مستعينا على جهلهم بعلمه، وعلى نسيانهم بحفظه، حتى هابوا جانبه وكرهوا لقاءه، وأصبحت حياته سلسلة من الخصومات الأدبية سجّكها بالشعر اللاذع والنثر القارص في كتابه الحماسة".

وعلى مستوى التعليم كان الأزهر قد دأب طويلا على إغفال اللغة والأدب من مناهجه "فأدخلهما الأستاذ الإمام محمد عبده في الدراسة الحرّة، وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطي...".¹⁷³

وساهم ابن التلاميذ في إحياء التراث العربي الإسلامي، تعريفاً بالمخطوط منه، وتصحيحاً للمطبوع، وتنويعاً بمأثور أمم المحافل.

170 - من وحي الرسالة، ص 284.

171 - من وحي الرسالة، ص 250.

172 - نفس المصدر.

173 - الزيات، من وحي الرسالة، ص 48.

ويرى الزيّات أن محمد عبده هو الذي وكلّ إلى الشنقيطي إحياء أمّهات التراث فنشر المخصّص وحرّر القاموس وأملّى الأراجيز.¹⁷⁴

وهكذا نشر ابن التلاميذ المخصّص لابن سيّده وقد تعب في هذه العملية حتى كان، في آخر أيامه يقول "أنا قتيل المخصّص" وكان شرع في تأليف كتاب سمّاه ببيان العلم المرصّص في أوهام المخصّص لم يكتب منه إلا ما طبع على حواشي الطبعة الأولى من المخصّص.¹⁷⁵

وكان صحّح بعض الأوهام الواقعة في الطبعة البولاقية من الأغاني، ولم يستوعب كل ما فيه، فجرّدها من حواشي نسخته الشيخ الفاضل محمد عبد الجواد الأصمعي وطبعها بالمطبعة الجالية بالقاهرة سنة 1334 هـ بعنوان : تصحيح الأغاني.¹⁷⁶

وقد ترك ابن التلاميذ تراثاً زاخراً بنوادر المخطوطات والمطبوعات.¹⁷⁷ وقد اشتهر عنه، في حياته، أنه كان لا يملّ من تتبع مظانّ نوادر التصانيف فحصل عليها بالنسخ أو بالشراء. وهو ما يتضح بجلاء من قول طه حسين أن الأوساط الأزهرية كانت لا تفتأ تذكر أن الشنقيطي (..) كانت له مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسخاً.¹⁷⁸

وأما عن دوره في التنويه بذخائر التراث العربي في مكتبات أوروبا، فلا أدلّ عليه من رحلته إلى أسبانيا ليكتب فهرساً ل ذخائرها من التراث العربي بطلب من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي سهّل له أسباب السفر. ولكن الشنقيطي لما عاد بالعمل المطلوب رفض تسليمه لقصر الخلافة إلى حين حصوله على مكافأته. وقد رفض القصر هذا الطلب وبقي العمل مع صاحبه.¹⁷⁹

174 - الزيّات نفسه، ص 47.

175 - اشرف ابن التلاميذ على طبعة القاهرة (1316 - 1321) من هذا المصنّف.

176 - تيمور، أعلام الفكر، ص 372.

177 - ترك ابن الامين في رسالته الأنفة أن مكتبة بن التلاميذ، عند وفاته كانت ناهزت الألفي كتاب "من المخطوطات والمطبوعات". والموجود منها في دار الكتب حالياً 335 كتاباً فحسب !؟.

178 - الأيام، ص 154.

179 - إطلعنا على هذا الفهرس تحت عنوان : أسماء أشهر الكتب العربية الموجودة بخزائن مكاتب دولة أسبانيا. الشيخ الشنقيطي، ت 1323 هـ (دار الكتب الوطنية التونسية رقم التسجيل 6852) وقد حصلنا على صورة من هذا العمل الهام بفضل تدخل من الدكتور محمد الناجي بن محمد أحمد بن لخليفة الموظف بالجامعة العربية بالقاهرة. فليفضل بقبول خالص شكرنا وامتناننا.

وإجمالاً، فقد عرفت هذه المنطقة القصية من أطراف الوطن العربي نظاماً حضارية وثقافية أهلية مدينية منسجمة احتضنتها تشكيلات اجتماعية راسخة حافظت على "إجماعها" قروناً قبل التغلغل التجاري الأوروبي الذي ضرب التجارة عبر الصحراء وفكك أسس التكامل بين المجتمعات الساحلية-الصحراوية، قبل التحكّم الاستعماري المباشر الذي ضرب المجتمع الأهلي في مقتل بتحويله مراكز سبل الحياة إلى البحر فالنهر مما أنهى الدور التاريخي للمدن في نشر الثقافة العربية-الإسلامية جنوباً.